الأخوان
نار ونور

رواية

د . إيهاب سلام

(١)

العمال ينهمكون في نسج الخيوط كأنما يغزلون نوراً أبيـــض . والعرق يتصبب من جباههم ، ويتركونه يسري فـــي أجســـادهم . ونور يقول : أليس لهذا العذاب من آخر ؟ .. يـــرد عليـــه عبـــد البصير زميله : يمكنك أن تتخلص من هذا العذاب بـــأن تطـــالب بحقك ! .. يقول نور متسائلاً : وما هو حقي يا فالح ؟ .. يقـــول : أنت ابن صاحب المال . وابن صاحب المال الآخر استولى عليـــه كاملاً ولم يبال بمطالبك . يقول نور : وكيف أثبت يا أخي أنني ابن صاحب المال . يسأل عبد البصير مستغرباً : ألم يكـــن صـــاحب المال أباك . وألم يكن متزوجاً من أمك ؟ .. قال : نعـــم . كـــان متزوجاً بعقد عرفي . وكان يضع نسخة العقد في جيبه . ولما مات لم تكن لأمي أن تطالب بشيء لأن ما بينهما عقد عرفي . ولم يكن في إمكاني إثبات نسبي لأن ليس لدي نسخة من العقـــد العرفـــي . والشاهدان على العقد لا نفع من ورائهما لأنهما ماتا في الحج . .

يقول عبد البصير : إذن تحمل يا نور أفنـــدي إهمـــال أمـــك . يقولون إن الآباء يزرعون الحصرم والأبناء يضرسون . وعليـــك أن تضرس حتى نهاية العمر . تكون ابناً لصاحب المال لا يتمتـــع

بما تركه . ويكون هناك ابن آخر لصاحب المـــال يتمتــع بكــل الخيرات . يقول نور : أنا راض بقدري . يســأل عبــد البصـــير متعجبا : إذن لم تقول أليس لهذا العذاب من آخر ؟ .. يقول نــور : أقصد عذاب الحر وليس عذاب الظلم .

(٢)

يجلس نار أمام المائدة . ومروحة من طراز فيلبس مســـتوردة من هولندا ترسل هواء باردا . الحجرة مقفلة والحر يجــول فيــها غير أن خبطات الهواء فيه ترنحه . وتضعضعه . تجعله كسـيحا ، فيتحول من حر لافح إلى برد لطيف . هكذا يكون تطويع الـــهواء الحار ، مثلما أطوع أنا العمال في مصنعي . تركه لي وحدي رغم الشائعات أنه كان متزوجا من بنت الحسين . وكان يقول لها يا قرة عيني . ولكن أين هو الآن ؟ .. اختفى وقيل إنــــه احــترق كمــا احترقت معه المرأة التي أحبها والفاعل مجهول . أنا نار ابن أبيه . أما ذلك المدعو نور فهو أجير عندي . حولته من ملاحظ عمـــــال كما كان يريد له أبي حتى يشرب الصنعة وينمو بها إلـــى أجــير يعمل على نول يدوي زهاء ست عشرة ساعة في اليوم ورضـــــخ ولم يتململ . وأنكرت اخوتي له . ولم أعلن أبوة أبي له رغـــم أن الناس – العمال والعاملات – تعرف . وهو بـــدوره أبــت عليــه

كرامته أن يعترف بي أو يعلن بنوته لأبي . اسمه نور كريم . وأنا اسمي نار كريم . تشابه أسماء لا تولد حقاً . سماني أبي نار لأنــه اكتشف أنني رذيل . وسماه نور لأنه أدرك أنه فضيل .. ربما .

(٣)

قال عبد البصير : لم لا تؤلف جماعة أنت زعيمــــها تطــالب بحقوقنا يا نور ؟ ..

سأل نور : وما هي حقوقنا يا عبد البصير ؟ ..

قال : أن نعمل ساعات معقولة . وليست ست عشرة ســـاعة . وأن نرتاح ولو ساعة . وأن يكون لنا فـــي كـل أســبوع راحــة أسبوعية . بدلاً من العمل المتواصل الذي لا يهدأ سوف نمرض يا نور ويطردنا صاحب العمل وننزوي . ولن يأخذ أحد بيدنا ســـوى هذه الجماعة .

قال نور : أنا لا أريد أن أواجه أخي نار يـــا عبــد البصـــير . ويمكنك أنت أن تتزعم هذه الجماعة . وأنا أشـــك أنــها جماعــة مشروعة . سوف يسلط نار علينا رجال الشرطة . وسوف نُحبــس ونُسجن . وسوف يتشرد أولادنا . ألا تـــدرك يـــا رجـــل عاقبــة الأمور .

قال عبد البصير : سوف نتوقف عن العمل . سـوف نضـرب وليبحث عن عمال يعملون على أنواله اليدوية . ولن يجد . وسوف يضطر أن يخضع لشروطنا .

قال نور : استجمع العمال والعاملات حولك أولاً . ثم أبدأ فـي تعليمهم حقوقهم التي تطالب بها . وحينما يتم شحنهم أصدر إليـهم الأوامر أن يخضعوا لك . وإذا ما أتمروا بأمرك فسوف تنال مـا تريد .

قال عبد البصير : رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه . ليس لـدي صفات الزعامة مثلما لك يا نور . أنت الزعيم وليس هناك زعيـم غيرك .

قال نور : وأين هو الوقت يا عبد البصير الذي يمكن فيه تجميع العمال . إنهم يعملون ست عشرة ساعة ، ويعودون إلى مسـاكنهم المقرفة مهدودين . ولـن يفكـروا فـي اجتماعـات ومجـادلات ومطالبات .

(٤)

يشدها من يدها فتتمنع ، فيقول لها : أنا نار يا مرة . ألا تعلمين نفوذي ؟ .. يمكن أن أضع في يديك الأغلال . وأن آمر مـأمور السجن بإيداعك فيه . أتتمنعين عليّ ؟ .. قالت الفتاة وهي تحـاول أن تفلت من قبضة يده ، وذراعاها العارية تبدو خمرية اللون فـي الضوء الخافت : أنا لا مانع عندي ولكن في الحلال ؟ .. ويسـأل نار مبهوتا : وما هو الحلال في نظرك ؟ .. تقول ضحى : الحلال بين . والحرام بين . المأذون هو الحلال . والزنا هـو الحـرام . يهمس ، وهو لا يزال يقبض على ذراعها الناعم البض : ماذا يفعل المأذون ؟ .. يكتب ورقة . أنا أكتب لك ورقة مثلها . أعترف فيها بأنني زوجك . وأنك قبلت الزواج مني . تفلت من قبضته وتقول : لست أنا شوقية يا سيد نار .

تذكرني بشوقية زوجة أبي التي أنكرتها . وأنكـرت ابنـها .. نور . الكلبة . تقول مستطردة : لم لا تتزوجني في الحلال . يسأل نار : وهل ما سأكتبه حرام ؟ .. إنه عقد بينـي وبينـك . تقـول ضحى : وهل لو تقدمت لبنت المأمور مثلا تقول لـهم زوجونـي دون مأذون ؟ .. يرد بغضب : وما الـذي سـواك أنـت ببنـت المأمور ؟ .. تقول مستهزئة : وما الفرق ؟ .. هي بنـت تسـعة شهور . وأنا بنت تسعة شهور

(٥)

يدخل نور عشته . هذه العشة التي كان يزور فيها أبوه أمه منذ أكثر من عشرين سنة . أعاد نور بنائها بعد أن احـــترقت وهمـــا بداخلها ولم يكن موجوداً وقت الحادثة . واحترق فيها جسد أبيـــــه وأمه وهما ملتحمان خشية النار كأنما كان أحدهما ينقذ الآخر . لم يكن يعرف ان ذلك الرجل الأنيق الثري المحب لأمه قد تعاقد سـوا معها على أنه زوجها . وأن هذا العقد لم يوثق أمام مأذون . ولـــم يسأله يوماً كيف يتركهما في هذا الفقر المدقع وهو الثري . وحينما وظفه في مصنعه الذي يقع على مشارف البلدة وهو ابن الخامســـة عشر أبت عليه نفسه أن يطالبه بالاعتراف به وإعلان أبوته أمـــام الملأ وأن يجاهر بين الناس بأبوتـــه . منعتـــه الكبريـــاء والعـــزة والكرامة من هذه المطالبة . وعمل تحت أمرة عـــابدين ملاحـــظ العمال . وعلمه عابدين كل صنوف العلم : كيف يغزل .. وكيـــف ينسج .. ثم كيف يصبغ . ثم علمه كيف ينسج بـــالألوان وكيـــف يصبغ دون أن تبلى الألوان ولا تنمحي من الصابون بعـــد غســـل النسيج .

لم يكن نور يجرؤ أن يجاهر أمام والده أن يطالب بوثيقة تبيـــح له دخول العشة والخروج منها . كان يشعر بالذل والخضوع ولـــو أن في داخله ترقد الكبرياء وعزة النفس . ولم يعنف أمه أبداً . ولم

يعايرها بأنها تقابل رجلاً تدعي أنه أبوه . وأنه يختلي بها . لقد أحس بالحب المتين بينهما ولم يستطع أن يحطم ذلك الحب . لم يكن قادراً على أن يعترض . ولعله لما تحرر من سطوة أبيه وأمه ظهرت عزة النفس وتبدى الدفاع عن الكرامة ولو أنه ظل غير قادر على المطالبة بحقوقه وأن يعترض على سلب أمواله تلك التي أختلسها أخوه لنفسه .

(٦)

سأل نار خادمته الجديدة : لم تستسلمين لي ولا تعارضين ؟ ..

قالت : أنت سيدي ! ..

قال : لكنك عرفت أن ضحى .. الخادم السابقة .. كانت تتمنع .

قالت : أنت سيدي .

ليس لديها قول غير ما قالته . وأنت تغرق حباً فيها . يبدو أن ذوقك يا نار ليس رفيعاً . لا تريد أن تكون لك أسرة محترمة . أنت تقصيت أحوال مبروكة وعرفت أنها مطلقة . وأنها لا تنجب ولم تنجب . لذلك استقدمتها لتعمل عندك في دارك ، فأنت سوف تتمتع بها دون مقابل . رغم أن رائحة إبطها مقرفة . غداً تستحم . ورغم أن ثيابها قذرة – غداً اشتري لها ثياباً جديدة . لو كانت

نفسك عزيزة فعلى الأقل لم تكن لتدخل بها وهـــي تفــوح ريحــا خبيثة . ولم تكن لتختلي بها وثيابها تملؤها رائحة البصل والثـــوم والطبيخ . . أنت فعلا كما قال عنك أبوك : خســيس الطبــع . لا يمكن أن يكون طبع الخسة في دمك إلا وراثة عن أمك التـــي لـــم تعمر كثيرا . قتلها شرها وهي تحاول أن تكيد لأم نور . وفشــــل كيدها وارتد إليها لكن مؤامرتي نجحت ، فأوديت بها بـــل بـــهما معا . وقيد الحريق ضد مجهول . العجيب يا نار أنك تملك مــــالا كثيرا . وألف أسرة ترحب بك لأنها لا تعرف شيئا عــن ســيرتك الوضيعة السرية . ولكنك تأبى ألا ترتقي . تريد أن تعيـــش فـــي الوحل إلى الأبد .

(٧)

وقف نور أمام عشته يتأمل الحقول الخضراء المترامية أمامه . كان الجو صحوا . والشمس ساطعة . تلقي بحرارة خفيفـــة ، ثـــم مضى إلى المصنع اليدوي . مصنعه الذي حرمه من المشاركة فيه

أخوه لأنه لا يعترف ببنوته لأبيه . رغم أن جميع الناس يمكـــن أن تشهد أن كريما صاحب المصنع ترك وراءه ولديـــن همـــا نـــور ونار .. وتأمل نور الطريق وتساءل : لم تركني أبي فقيرا ؟ .. لم لم يدخلني مدرسة أتعلم فيها ؟ .. ولم لم يعترف بي ابنا شـــرعيا ؟ .. أكان يكتفي بما يحصل عليه من متعة من أمي ؟ .. ولا أهميـــة بعد ذلك لمستقبل ابنه منها ! .. ولم أعطى الثروة كلها لنار ، وجعل له هذه القدرة المالية ومنعها عني . ربما كان سيصحح الوضع لكن عاجلته المنية بذلك الحريق المفاجئ الذي أودى به وأودى بـــأمي . ولكن جعل له سلطة واسعة ونفوذا متغلغلا . إن اتصـــــالات نـــار واسعة بكل المسئولين وله كلمة عند أكثرهم . لم فرق في المعاملـــة بيننا . أنا الفقير البائس العامل لدى أخي الغني الســـعيد صـــاحب العمل . ولا سبيل إلى اكتشاف السر – سر التفرقـــة بيننـــا – إلا بالتخمين . ولم يبق أمامي إلا أن أطور نفسي . أنا الـــذي يصنـــع مستقبلي ورغدي وهنائي وسعادتي . وليست الثروة التي تركها ولا المصنع الذي آل إلى شر الناس .

(٨)

مال عليه وديع وقال : سيدي نار . لقد نما إلى علمي أن العمال سوف يتجمعون بقيادة نور أخيك .. قاطعه نار وقال : ليس لي أخ اسمه نور يا هذا .. أنا وحيد أبوي . ارتبك وديع وقال : عفـــوا . عرفت فقط أنهم يريدون أن يطالبوك بالعمل ثماني ساعات فقـــط مثلما هو الحاصل في الدول الكبرى .. ضحك نار وقهقـــه : دول كبرى .. نحن دولة متخلفة ، فليحاولوا مطـــالبتي وســوف أودع معظمهم السجن .

سأل وديع : وكيف يعمل مصنع النسيج ؟ .. قال نار : ســـوف استبدلهم بعمال جدد . قال وديع بخبث : وهل هنـــاك فـــي دولـــة متخلفة عمال مدربون مثل عمالك ؟ ..

فكر نار قليلا ثم قال : إذن حاول أن تعين عمالا جـــددا .. وإذا ما اعترض العمال القدامى استغن عنهم وبدلهم بالعمال الجدد .

تأمل وديع نارا طويلا ثم قال : وإذا تضامن الجدد مع القدامى . أشاح نار وراح يقول : أنت تعقد الموضوع . فما هو رأيك فـــــي الاقتراح الأمثل ؟ ..

قال وديع وهو يهمس : نقلب العمل ورديتين . وكل وردية اثنتا عشرة ساعة . وبذلك يزيد الإنتاج ويخف الضرر عن العمال قليلا ونقتل دعاواهم في المهد .

(٩)

قالت آمال جارة نـــور صاحبـــة الأرض الزراعيـــة الواســـعة المترامية : أنا أحتاج للمساحة التي تقيم عليها عشتك يا نور ؟ ..

قال : وأين أذهب يا ربة العفة والجمال ؟ ..

سألت آمال : أتغازلني يا نور ؟ ...

قال : إذن ، لا داعي لهذه العبارة .. أين أذهب ؟ ..

قالت : أرض الله واسعة .

قال : هذه هي المساحة الوحيدة التي أملكها .. ورثتـــــها عـــن أمي . ونظرا لأني لست أنثى بل ذكر ، فأنا ورثتها كلـــها وليـــس نصفها .

قالت : هذه الأرض كانت ملكا لجـــدي .. ووهبـــها لجـــدك .. وورثتها عنه أمك وأخوها .. ومات أخوها فورثتها منه .

استكمل نور كلامها : وأوصى لها ببقية الأرض والهبة – كمـــا اعرف – لا ترد .

سألت : إذن أنت لا تريد أن تبعني إياها ..

قال : لا .. وألف لا ..

قالت : إذن أضمك إليّ .. وبالتالي أضم الأرض .

استغرب وتساءل : كيف ؟ .. هل أنا رقيق ؟ ..

قالت آمال : لا .. أنت حر .. ولكن سوف تتزوجني . وتـهبني الأرض مهرا .. وتكون لك المتعة في كل أملاكي الواسعة التـي تمرح فيها كما تشاء .

(١٠)

همس وديع قائلا : فاتتك فرصة كبيرة يا سيدي نار . إن آمـال صاحبة الخمسمائة فدان سوف تتزوج من نور .. فلم لم تتزوج بها أنت ؟ .. ثري يتزوج من ثرية ؟ ..

قال نار متفكرا : فكرت في ذلك .. خاصة أن المصنع يحتـاج إلى القطن . وأرضها لا تزرع غيره .. لكن تبيـن لـي أنـها لا تعيرني اهتماما .. تحب الفقير المتسول العامل في مصنعي علـيّ أنا صاحب العمل الغني .

قال وديع : الحقيقة يا سيدي نار .. نور يرفض أن يتزوجـها . لا يقبل أن يكون غنيا بسبب ثروة امرأة .. يريدها فقيرة .

سأل نار مستغربا : ماذا يعجبها فيه ؟ ..

قال وديع وهو يطأطئ رأسه : ربما رجولته ..

قال نار غاضبا : وهل أنا امرأة يا هذا ؟ ...

تراجع وديع وقال : لا أقصد . ولكنك لم تحاول أن تشـاغلها .. ولم تحاول معها .. أنت لم تتقـــدم إليــها فكيــف تعــرف أنــك تريدها ؟ ..

" وهل أترك المرأة النتنة خادمتي ومتعتي معـــها مجانـــا ؟ .. والتفت إلى تلك الأنثى التي تتضوع منها الرائحة الزكية ومضطـو أن أدفع لها ثمن عيشتي معها ؟ .. لـــم لا تجمـــع بيـــن الاثنتيـــن يا نار تكون لك المتعة المجانية وتنهب من أموال الأخـــرى دون رقيب .. حان الوقت أن تكون لك أولاد . وإلا ورثك ذلك العبـــــد الفقير نور . "

(١١)

تجمهر العمال أمام دار نار . يهتفون بسقوط الظلم ويطـــالبون بساعات معقولة للعمل . يخرج نار مرتديا ثيابا بيضاء فضفاضة . ويضع على جسده عباءة بيضاء أيضا تبدو فسفورية اللون . يبـــدو فيها أنه ملاك . زعق أحد العمال : يسقط الشيطان . وردد العمـــال الهتاف وراءه .

ابتسم نار في قلق وقال : من زعيمكم ؟

قال الجميع : كل واحد منا زعيم نفسه .

لم يجد بين الصفوف أخـاه نـورا . اسـتغرب أن لا يـتزعم العمال : أين اختفى ؟ .. لعله يقود الجموع دون أن يظهر .

قال نار بصوت ثابت : لقد قررت أن يعمل المصنع ورديتين . وإذا كان لديكم أبناء فلا بأس أن يعملوا معكم . ليعلم كل أب ابنـه أصول الصنعة .. وبذلك سوف تزيد أجور كل عائلة .. وسـوف تنعمون بساعات عمل أقل وساعات راحة أكثر .. ولنتوكل علـى الله .

" خطوة خطوة حتى نحصل على حقوقنا . ليس بالتجمهر الأول نسترد حقوقنا . هكذا علمنا نور أن نسترد الحق بالقطارة . وليـس مرة واحدة . لأن في استرداد ه مرة واحدة سيكون هناك اعتراض وتملص واستنكار " .

(١٢)

أنت يا نار شرير بطبعك . هكذا اكتشف أبوك مكنون نفسـك . ولكنك شرير ماهر ، لا تفعل الشر بيديك ، أنت تـأمر بـه أحـد

أعوانك لينفذه . عندما أردت التخلص من أبيك ، حرضت وديعـــا على ارتكاب الجرم . وحينما أردت تشغيل العمال ســت عشــرة ساعة في اليوم الواحد ، حرضت مدير شئون العاملين أن يصـــدر قرارا بذلك . ثم أوحيت إليه أن يخفض ساعات العمل إلى اثنتـــي عشرة ساعة ، بعد أن تذمر العمال . وامتصصت التيـــار العـــارم بكلمتين . أنت تفعل الشر بالتحريض والإيحاء . وتـــتربع علـــى عرشه دون أن يتعرف الناس عليك . وها أنت تريد أن تفرق نورا عن آمال ، فتوحي إلى وديع أن تترك آمال نورا ، وترتبط بـــك . وتنتظر أن يعود وديع إليك ، لكن وديعا لا يعـــود ، لأن مســعاه خاب ، ويخشى مواجهتك . الخائبون يخشون مواجهتك . هكذا نور لا يواجهك . يبقى بعيدا عنك ، ولو أنه يحرض العمال ضـــدك . هل نور خائب كما تظن ؟ .. لا أعتقد إنما هو خبيـــث ، يتفـــادى الصراع ، ويعمل من الظل وفي الظل . أنت تخرف يا نار .. لـــم يكذب أبوك حينما سماك بداية نارا كيف اكتشف أبي ذلك ؟ .. هـل كنت منذ البداية شريرا ؟ .. فأطلق علي ذلك الأسم ، الذي نادرا ما يتسمى به أحد . سمعت بداية عن أبي نار ولكن لم أسمع عن نار . أم أنه وجهني لأن أكون شريرا وأن يكون نور هو الخير . غـــرز في حب الشر . وغرز فيه حب الشر . وهل أبي قـــادر علـــى أن يفعل ذلك ؟ ...

(١٣)

انتحى وديع جانبا في مقهى البلدة . كيف يذهب ويقول لنـــار إن آمال رفضته . هي تفضل الفقير العامل علـــى صـــاحب الـــثراء وصاحب الأعمال . لو واجهته لحطم وجهي . ماذا ســـأفعل الآن ؟ .. قلت لها : إن نارا صاحب مصنع الغزل والنسيج اليدوي يريدك زوجا له . سألتني : ولم لا يتقدم بنفســـه ؟ .. قلـــت : لا أدري .. قالت : أذهب وقل له إنها سوف ترتبط بنور الـــذي يعمـــل فـــي مصنعك . ولا تفكر أن ترتبط بك ولو تقدمت إليها بنفسك . أتراها تعرف أفعاله الشريرة ؟ .. أتراها تدرك أنه يمتص دماء العمـــال ويحولها إلى ذهب ويرتفع ويرتقي بينما العمال يـــتزحلقون علـــى سلالم الحضيض ويصلون إلى القـــاع ويتضـــورون ولا تكفيـــهم أجورهم الهزيلة لسد رمقهم .

يدخل نار على ويع في المقهى . وقد انزوى في ركن منـــها . ويقف رواد المقهى احتراما وإجلالا لأغنى رجل في البلدة . يســأل نار : ماذا قالت لك ؟ .. قال وديع بعد أن ألتقط أنفاسه : رفضت . كان عليك يا سيدي أن تذهب وتطلبها بنفسك . قال نار غاضبـــا : ماذا تظن في نفسها تلك المرأة ، ليس هناك امرأة غيرها ؟ ..

(١٤)

يعود نور مهدود الحيل ، بعد عمل متواصل ، يأكل خبزا وجبنا ، ثم ينام بعد أن يتقلب على الحصيرة : لم لا تتزوج آمال صاحبة الأرض الزراعية الشاسعة ، وترحم نفسك من هذه العيشة الضنك المفعمة بالقحط ؟ .. وينام بعد أن يستنكر أن يتزوج من امرأة ثرية ، ويعيش على حسابها . كرامتك توجعك يا نور .. يا ابن الفلاحة .. هل لا تفكر في الترقي أبدا ؟ ..

تفتح آمال باب العشة ، وتشعر أنه مستغرق في نوم عميق ، كأنه موت مؤقت ، تدنو منه ، وتنام على الحصيرة بجانبه ، يتحرك حركة مفاجأة ، وتسقط يده على ذراعها البض . إنها بنت مدينة لكن تعيش في الريف . من المؤمنات بجان جاك روسو الذي ينادي بالعودة إلى الطبيعة . مات أبوها ففضلت أن تدير أطيانها بيدها رغم أنها حصلت على البكالوريا باللغة الفرنسية ، وتتقن قراءة اللغتين الفرنسية والإنجليزية . تتحرك يد نور على ذراعها كأنه يحس بها لكنه يحلم أنه مع امرأة ومستغرق في حلمه يدنو منها كأنه يدنو من وسادة ناعمة . يضم الوسادة إليه . تدنو بفمها من ثغره .. تشعر بلذة وهي تقبله . وتحس أنه بدأ يحلم أن الوسادة

امرأة بجانبه . لعله حلم يراود كل شاب في مقتبل الشباب ، ولكنه يبدو حلماً جديداً لا يراوده أبداً لأن جسده مهدود . لكن اليوم جاء إليه رغم الإرهاق . يستغرق في القبلة لا يريد أن ينزع شفتيه من شفتيها .

(١٥)

جاء جاك بالانس من يوركشير في بريطانيا ، ليتفق على صفقة تخص قطن آمال . استقبلته بود كبير ، وناقشت معه الأسعار ، واتفقا على أن يشتري منها نصف محصول أطيانها . وسمع به نار ، فأرسل إليه يطلب أن يقابله . فوجئ جاك صاحب مصنع الغزل أن وديعاً ينتظره خارج دار آمال . وأخبره أن هناك صاحب مصنع يدوي للغزل والنسيج ينتظر مقابلته . تأفف جاك من اللغة الإنجليزية التي يتكلم بها وديع ، وكان من قبل منبسطاً من اللغة الراقية التي تتكلمها آمال كأنه يستمع إلى محاضرة في جامعة أكسفورد . رغم ذلك ذهب معه لمقابلة ذلك الحصن المختبئ في داره ولا يقابل الناس ترفعاً إلا بوسيط . استهزأ جاك من الأسلوب اليدوي الذي يدير به نار مصنعه . وتناقشا طويلاً حتى اقتنع نار أن يبني مصنعاً ميكانيكياً بمساعدة جاك ، وأن يكون

شريكا له بالنصف . ولما انصرف جاك عائدا إلى بريطانيا على أن يعود بعد أسبوعين ، ويكون نار قد اشترى قطعة أرض لإقامة المصنع عليها . وأن يأتي جاك ومعه تصميمات المصنع الهندسية . وقد ألمح نار لجاك أن نقوده جاهزة ، وأن ماله وفير . ولما اشترى نار قطعة الأرض في الصحراء مترامية الأطراف القريبة من البلدة ، نظر إلى العمال وهو يركب عربته التي يجرها حصانان وقال : سوف تشعرون بالألم حينما يتشرد البعض منكم .

(١٦)

بدأ أوليفر المهندس البريطاني يشيد مصنع الغزل والنسيج والتريكو الميكانيكي عند أطراف البلدة . ولم يصدق العمال في البداية أن هناك مصنعا غير المصنع اليدوي سوف يقام . وقال نور يطمئن العمال : ومن الذي سيقوم بتشغيله والآلات لا يوجد من يعرف كيف تدار ؟ .. ولم يسمع جاك وهو يقول بعد أن بنى عنبرا من عنابر المصنع ،: لابد أن نقيم مركزا للتدريب لتعليم وتدريب الأفراد على الآلات الجديدة .

قال نار موجها كلامه لوديع : لا أريد أحدا من هذه البهائم التي تعمل في المصنع اليدوي أن يتعلم . أريد دما جديدا حتى إذا ما تم

تشييد المصنع يتشرد هؤلاء السائمة في الأرض ويجوعون .

غير أن وديعا نكاية فيه لم يكن بالقسوة التي جبل عليها نـــار ، وأوصى بعض العمال أن يتركوا العمـــل ليتدربـــوا فـــي مركـــز التدريب . اختار الصفوة منهم وعلى رأسهم نور . وهمس لنفسه لا بد أن تكون هناك شوكة في قلب نار تقلق منامه . ووافق نور على أن يتدرب على الآلات الجديدة دون أن يظهر شخصه أمام نـــار . وتدرب معه عمال آخرون . ولكن في نفس الوقت أوحـــــى إلـــى العمال أن يضربوا عن العمل آملين أن تخفض ساعات العمل إلـــى ثمانية ساعات . واستغرب العمال على موافقة نـــار علـــى هـــذا المطلب ، ولو أنه قام بتشغيل ثلاث ورديات في المصنع اليـــدوي وهو منتش مبتهج . سيكون عدد المشردين العاطلين أكـــثر ممـــا يتوقع أحد الآن في المستقبل .

(١٧)

استيقظ نور ، وهو في أحضان آمال فـــي عشـــته البـــاردة . وحرارة أنفاسها تملأ صدره . وكان في وضع استغربه من نفسه . وسألها وهو يتنحى عنها : ماذا تفعلين هنا ؟ ... قالت ضاحكـــة : نمارس الحب يا حبيبي . سألها : منذ متى ؟ .. قالت : منذ زمـــن

بعيد . ألم تلاحظ إلا الآن ، ظننتك مدركا. يبدو أنك كنت تتصور أنك تحلم . ولكن ذلك واقع لا ريب فيه . قال غاضبا : أمشي ولا تعودي أبدا إلى العشة . قالت : وما أحمله في بطني . هل ستجعله يولد سفاحا . غضب نور مرة أخرى وطفق يفكر وهي جالسة بجانبه عارية تنتظر . ثم قال : سوف نتزوج ولكن لن أدخل قصرك أبدا .. وستعيشين معي في نفس الكوخ . قالت متيمة به : أنا رهن إشارتك يا حبيبي .

كيف كانت تمارس الحب معه ؟ .. وكيف لم يتيقظ مرة ؟ .. هل الإرهاق كان قويا لدرجة أن يجعله في غيبوبة . أما نشوة الجنس قضت على يقظته . اليدان والجسد يفعلان ما لا يدري به ، والعقل في سبات عميق . يبدو أن ذلك تم أثناء عمله في المصنع اليدوي ، ولما حدثت فترة التدريب على الآلات الميكانيكية جعلته تلك الفترة يشعر بالراحة فانتبه . لم يكن يتنبه من قبل لأنه كان مرهقا ويظن أنه يحلم حلما لذيذا فلا يريد أن يفارقه . ولم لا تعيش معها في قصرها . أياتيك السعد حتى باب كوخك وتطرده . غدا سوف يطردك نار من مصنعه اليدوي ، وربما يمنعك من العمل في مصنعه الميكانيكي ، ولا يتمكن وديع من استغفاله فكيف ستعيش ؟ .. وكيف ستنفق على زوجك ؟ ..

(١٨)

فوجئ العمال بالمصنع اليدوي يُقفل أبوابه . ويعلـــن وديـــع أن المصنع سوف يُباع بالمزاد العلني . وأن على العمال أن يبحثــــوا لهم عن عمل . وانتحى بالعمال المتدربين جانباً لصالح المصنــــع الميكانيكي وطلب منهم التوجه للعمل على الآلات . غير أن نـــوراً وقف مع العمال المشـــردين ورفـــض أن يعمـــل فـــي المصنـــع الميكانيكي . وسأله وديع : إذن لم تدربت وتقاضيت مقابل مــــالي للتدريب ؟ ..

قال : أنا أرى أن لا مانع من تشغيل المصنعيـــــن فـــي وقـــت واحد . قال وديع غاضباً : لكن ناراً صاحب المصنعين لا يريد إلا أن يُدار مصنع واحد .

هرع نور إلى آمال . وطلب منها أن تشتري المصنع اليـدوي . سألت : وهل أنا أعرف في إدارة المصنع اليدوي حتى اشـــتريه . قال نور على الفور : وهو ينظر إلى آمال التي انتفخت بطنها مـــن أثر الحمل : سوف أديره يا آمال لك .

ولما أقام نار المزاد العلني على بيع المصنع اليدوي ، دخلـــت آمال بكل ثقلها المالي واشترت المصنع . استغرب نار أن تشـــتريه آمال ، وسمعها تقول للعمال : لن يكون هناك جائع بعـــد اليـــوم . ولسوف يدير المصنع زوجي نور كريم . وليكف الشامتون عـــــن

الشماتة . بُهت نار ، وهو يرى نور يتقـــدم صفـوف العمـــال ، ويهتفون بحياته ، ويعدهم براحة أسبوعية من كل أســبوع ، فلــم يكونوا يحصلون عليها في ظل المالك القديم .

(١٩)

رغم أن آمالاً أعلنت أن نوراً زوجها ، وكان قد عقـــد قرانـــه عليها عند مأذون البلد ، لكن الخبر لم يكن قد انتشر بين صفـــوف العمال ، لأن نوراً استمر يعيش في عشته ، ولو أن آمـــال كـــانت تقضي معه طرفاً من الليل ، وتعود إلى دارها بعد ذلك . وأدركـت آمال أن نصف زواج خير من العزوبية الدائمة . وأن ذلك المصنع اليدوي سوف يرفع من شأن نور ، فلا يمانع أن يكون في حضنـها في دارها إكراماً لها . واعترافاً بفضلها .

بينما نار يغلي في داره ، ويقول لوديع : أنت خدعتني . يـــرد وديع : كيف خدعتك وأنا لا أعرف مثلك . إن أهل القرية كـــانوا يعرفون لكن اعتبروه سراً فلم يعلنوه على الملأ . وحجبوا الســـر عنك لأنهم يعرفون عداوتك لنور . انتفض نار غاضباً وقال : أنـــا لا أعادي أحداً . لا أعادي هذه الحشرة ولا تلك الحشـــرات . أنـــا أرفع من ذلك .

نكس وديع رأسه ، حتى لا يرى نار ما في عينيه من اعتراض على وصف الناس بالحشرات ، وهو واحد منـــهم ويعيــش مـــن خيراتهم . .

انصرف وديع قبل أن يلاحظ نار أن وديع قد امتعـــض . إنـــه رجل كريه ولكنه مضطر أن يعمل معه ليعيش . هو مخلبه في كل مؤامراته ، وهو ساعده الأيمن في كل توسعاته . يكفي أنـــه كـــان مديراً للمصنع اليدوي وهو الآن مدير للمصنع الميكانيكي .

(٢٠)

عرف نار أن نوراً سوف ينجب من امرأته الثرية . فقـــرر أن يتزوج . ومن ثم طرد خادمته النتنة ، ليتقدم إلى جـــاك بـــالانس شريكه في المصنع الميكانيكي للغزل والنسيج والتريكو وطلب منه يد ابنته . . ونظر إليه الرجل من فوق لتحت . قـــال مســـتغرباً : وهل أنا فقير ؟ .. قال : لو ذهبت إلى بريطانيا لعرفت أن ثروتــك ملاليم بالنسبة للثري البريطاني . . قال نار ضاحكاً : آه لو تعرف ما لدي من ثروة لفوجعت إذ رفضتني . سأله مندهشاً : كيـف ؟ .. قال : لست أملك فقط المصنع الميكانيكي . بـــل أملـــك أراضـــي زراعية شاسعة . ومناجم ومحاجر في الصحراء الواقعـــة خلـــف

المصنع . ولي شركة في العاصمة تدر علـيّ ذهبـاً تعمـل فـي المقاولات وبنكاً أهلياً أشارك فيه ، أنا أخطبوط لي عـدة أذرع ، ولكن لا أعلن عن ثروتي حتى لا أصاب بالحسد . . قـال جـاك ضاحكاً : ومتراجعاً : الآن أستطيع أن أعطيك ابنتي حتى ولو لـم توافق .

عرض جاك الأمر على ابنته فقالت : يجـب أولاً أن أتعـرف عليه ثم احكم . لذلك استضافها نار في داره عدة أسابيع . وقـال : مادامت بريطانيا تستعمر أراضينا ، فعلينا نحن أن نستعمر بناتها .

(٢١)

قال نور لنفسه : ربما والدي حرمني من الثروة ، حتى أسـعى إليها ، وأكونها بيدي ، أكون عصاميا من صغري ، أعتمد علـى نفسي . فالآن أنا مدير مصنع – مصنع كان له في يوم من الأيـام – وأديره بخبرة وحنكة . ، ولم أكن إلا عاملاً فيه . وقد تركـت زوجتي لي إدارته والتصرف فيه كأنما تعطيني هبـة لأبـدأ بـها حياتي وأتساوى معها . الغريب أنها تحبني ذلك الحب الكبير وأنـا أعاملها معاملة العدو . لم لا اخفض حدة القسوة فـي تصرفـاتي نحوها . يجب أن أغير من معاملتي لها . لقد عرفت أنها رفضـت

أخي ناراً رغم ثرائه الفاحش . وفضلت عليه شخصي المتواضـــع الفقير . لا يجوز أن أقسو عليها ، فهذه القسوة تجعل مزاجي دائمـا مضطرباً لأني لا أرضى عن نفسي . أيكون سبباً لذلك ما أعـــاني من فقر . إنها سوف تصبح أماً لولدي . ورفعتني من الحضيــض إلى القمة مرة واحدة ، فألا أكف عن هذه المعاملة ؟ ..

لقد ضحيت بنفسي من اجل أخواني العمال .. فأنا خفضت لــهم ساعات العمل . واشتغلوا ورديات ثلاث . ونالوا راحة أسـبوعية . وجعلت لهم إجازة سنوية . لم يتمكن نار مـــن أن يقيـم مصنعـه الجديد إلا على هذه الأسس . فضل بعض العمال ممن تدرب فـــي مصنعه على أن يعملوا عندي مع تلك الامتيازات عن العمل عنـده وهو لا يعطيها لأحد . وحتى يجتذبهم أعلن أنه سيمنحهم إياهـــا . وهل هذه تضحية يا نور ؟ .. إنك تحمّــل نفقــات العمــل علـــى المستهلك .. التضحية هي أن تكون زوجاً حقيقياً لامرأة تحبك .

(٢٢)

استبشر نار خيراً من تشييد المصنع الميكانيكي . وقد بدأ عملـه بعمال مهرة تم تدريبهم ، خلال فترة الإنشاء . وتفقد نار العمــال ، وحثهم على العمل ، لأن إنتاجهم سوف يباع في أسواق المـــدن ،

وأسواق أوربا . وليس مثل الإنتاج الذي يبيعه نور ، ذلك المتسلق الذي اشترت له زوجه مصنعا يدوياً ، لفظه نار ، ويبيع إنتاجه في أسواق القرى والنجوع . وحمد وديع ربه أن نوراً تزوج مبكراً من تلك السيدة الثرية ، وأنه لم يكن بين العمال ، رغم أنه تعلم العمل الميكانيكي ، وإلا كان نار قد رآه ، وقرر فصل وديع عن العملى ، وفصل نوراً هو الآخر ، رغم أنه لا يعلم شكله ولا رسمه ، يعرف فقط أن اسمه نور كريم . إنهما أخوان لم يلتقيا أبداً . ولم يواجه أحدهما الآخر ، ولكن ناراً يكيد لنور ، ويحقد عليه ، ولا يعرف وديع لذلك سبباً . ربما لأنه يخشى أن يطالبه بميراثه من أبيه .

كانت أول حادثة علم بها نار ، نتجت عن رعونة أحد العمال واسمه عوض ، تلك الحادثة التي أصيب فيها عوض في المصنع ، نتيجة احتكاكه بسير عار ، كاد أن يودي بحياته ، ولكنه جرح جرحاً بليغاً في ذراعه ، وأمر وديع بقذف عوض خارج المصنع ، وذلك أثناء مرور زوجة نور بعربتها ، تريد أن تتنسم هواء نقياً فأمرت الحوذي أن ينقله إلى المستشفى . وجن جنون نار لما عرف القصة . وقال لوديع : كان يجب أن تتركه حتى يتصفى دمه ويموت . ولا تكون له دية . امتعض وديع من شر نار ، ولم ينبس .

لم يكن عوض هو الوحيد الذي أصيب من الآلات العارية ، كان فاضل الميكانيكي النشيط أصيب هو الآخر إذ أخطأ في الاقتراب من السيور العارية ، فالتهمته . ونُقل إلى المستشفى بين الحياة والموت . وقام وديع بإبلاغ نار بذلك ، فاستشاط غضبه . وقال : بهائم . لم لا يبتعدون عن السيور . قال : إنه ميكانيكي ويقوم بإصلاح الماكينات ، غير أن الكهرباء دبت فجأة رغما عنه في الآلات ، فأكلته . قال : وما حاله الآن ؟ .. قال : بين الحيلة والموت . سأل نار : ومن حرك الكهرباء ؟ .. قال : لا نعرف . ولكن يبدو أنها بفعل فاعل . قال نار مشوحاً : إذن الفاعل هو المسئول . وهو مجهول . فلتبلغ الشرطة بذلك .

ولما فارق فاضل الحياة في المستشفى ، جاءت امرأته وطفلتها الصغيرة إلى مكتب نار الذي كان يأتيه لماماً . وقالت لنار حينما وجدته صدفة هناك : لا نستطيع أن نعيش يا سيدي بعد موت فاضل .. سألها : من فاضل ذلك ؟ .. لا أعرف عاملاً بهذا الاسم . لا يوجد في سجلات المصنع عامل اسمه فاضل . قالت المرأة بجرأة : أنا لا أسألك . ولا أتسول . أنا أطالب بحق زوجي . وحق ابنته هذه التي أصابها اليتم مبكراً . قال نار غاضباً : أذهبي يا امرأة .

ونادى وديع وقال : من ادخل هذه المرأة إليّ ؟ .. خذها من هنا .

وفي الخارج أعطاها وديع مائة جنيه ، وقال لها : لا تحاولي أن تفعلي شيئاً . ليس لديك ما يثبت أن فاضلاً كان يعمل عندنا . ولن يشهد أحد في صالحك أبداً ، لأن العمال يخشون الفصل .

(٢٣)

اجتمع نور مع عمال المصنع الميكانيكي ، مصنع أخيه الناكر له . ، وقرروا أن يتقدموا بشكوى إلى مصلحة العمل لأن المصنع تم تشييده دون مراعاة قواعد الأمن الصناعي . وعدم إقامتها قد يقتل العمال ويجرحهم واحداً وراء الآخر . وتصادف أن ناراً كان في المصنع ، حينما دخل مفتش للأمن الصناعي جاء من العاصمة ، وقدم نفسه بهدوء وطفق يفتش عن ثغرات الخطر الصناعي في المصنع . ولحق به جاك بالانس ، وأخذ يكتب ما يمليه عليه المفتش من ضرورات صناعية أمنية يمكن أن تقي العمال من الحوادث . وسأله جاك المفتش عن الغرامة التي سوف توقع . فوجئ جاك بثقلها المالي . غير أن المفتش طمأنه أن لديه مهلة شهر ، ولو كان جاداً في إزالة المخالفات فقد يمد له مهلة

أخرى ليضع الشروط الصناعية كاملة في العمل ، وكذلك الشروط الصحية للعمال .

قال نار لجاك بعد أن غادر المفتش المصنع : لا تسأل فيه . قال جاك : أنت متخلف . لا تعي أن تنفيذ هذه الشروط لمصلحتنا . قال نار معترضاً : ومن أين آتيك بالمال .؟ .. قال جاك : أنا أريد مصنعاً مثالياً ولا أهمية عندي للمال . قال نار محتجاً : أصرف .. أصرف .. قال جاك : ما سأصرفه سيكون من رأس المال الخاص بي . امتعض نار وذهب إلى زوجه هيدي وقال لها : أبوك يريد أن يبتلع المصنع . قالت تداعبه : وأنت ألا تريد أن تبلعه ؟ .. إنك يا عزيزي تريد أن تأخذ ولا تعطي . مع أن الوضع يتطلب أن تأخذ وتعطي .

(٢٤)

استمرت آمال في رعاية عوض العامل المصاب في مصنع نار الجديد . وشجعها على عيادته نور ، إذ كان متفرغاً للمصنع اليدوي . وليس لديه وقت أن يزور عوض في المستشفى .. وقالت آمال : إذا رفض نار أن يعيدك إلى العمل فثق أن لك مكانك في

المصنع اليدوي . طفرت الدموع من عيني عوض وهو يقول : كل ما أتمناه ألا يعجز ذراعي عن العمل . قالت : ولو عجز فسوف تعمل بيد واحدة .

خرجت آمال من عند عوض ، تشعر أنها تائهة . رغم ما أصابه فهو يبتسم . وطفقت تقارن بينه وبين نور . نور عبوس كأنه يحمل الدنيا فوق كتفيه . وهو متفتح كأنه لا يهتم بالدنيا . استنكرت أن تفكر في عوض وهي متزوجة . ولكنها تذكرت أن زوجها لا يهتم بها مثلما تهتم به . لا يحبها مثلما تحبه . وذلك العامل الفقير يقابلها بابتسامة ويتأملها بغرام . يكاد قلبها يخفق بشدة وهي تلمس يده الأخرى غير المصابة . ماذا حدث لها ؟ ..... إذا كان ذلك حباً أو حتى استلطافاً فلتؤده في فؤادها . إنه أمر لا يصح . ولتغلق عليه أبواب قلبها . إن كلماته المادحة المثنية عليها تثلج صدرها . ترددها بينها وبين نفسها . لا تذكر كلمة لزوجها نور رددها عوض . ثم ذلك الحاجز من الجفاء الذي صنعه نور يمنعها أن تتفوه بكلمة . كأنما ما تزوجها إلا لأنها ستنجب غضباً عنه . لا يريد طفلاً غير مثبت قانوناً منتسب إليه ولا يعترف به القانون . سلمت له نفسها وهو في غفلة من هد الحيل .

(٢٥)

هل تورط يا نار بزواجك من هذه الإنجليزية ؟ .. تعاملك كأنك من طبقة أدنى . تعاملك كأنها تعامل الثرية فلاحاً لديها . ولكنك لا تسكت أبداً . لا تبلع تصرفاتها . تسخر منها وتواجهها . بل تشتمها في بعض الأحيان ولو أنها لا تفهم لغتك . لم تحاول أن تتعلم اللغة العربية . وتتفاهم معك باللغة الإنجليزية التي تتقنها . كنت تظن أنها لن تلد لك ولياً للعهد .. لكنها كانت ولوداً فأنجبت طفلاً ثم طفلة ثم طفلاً آخر . إذن علاقتك بها علاقة جنسية فقط . لا مودة ولا محبة . تطالب بأن تكون لها حصة في المصنع غير أنك ترفض .. يكفي أن أباها شريك بالنصف . ولو أن لك حق الإدارة وتتقاضى راتباً على ذلك لكنك لا تستطيع أن تسرقه . كأن لك حق الإدارة ، وهو له حق الرقابة . عيناه نافذتان . تخترقان أسرار العمل رغم أنه لا يتكلم باللغة العربية . وديع – السافل – ينقل إليه كل الأسرار . وهو يقيد كل ما يصل إليه من معلومات في دفتر صغير ويحاسب عليه بدقة .

لكن لم أعدت من جديد مبروكة إلى العمل ؟ .. تلك المرأة القذرة . إن هيدي تغار منها رغم أن الفرق بينهما كالفرق بين السماء والأرض ، وقد أرجعتها لأن مبروكة حارة ملتهبة ساخنة . أما هيدي فهي باردة متكبرة لا تريد إلا الأناقة والمال ورعاية

الأولاد . لا أهمية عندها لإرضـــــاء الرجـــل . أنـــا أكـــره هـــذه الإنجليزية . وأتمنى أن تترك البلد ولا تعود وتحجم نفسها مثلمـــــا حجمت بريطانيا نفسها فانزوت في قناة السويس .

(٢٦)

لم لا تحبها يا نور ؟ .. المرأة طيبة . رفعتك من الحضيـــض إلى القمة . صرت مديراً على مصنع كان يملكه أخوك الجـــاحد . ولو أنك لا زلت تسكن عشتك التي بنيتـــها بـــالطوب الأحمـــر . والمرأة تحفظ فرجها وتصون عرضها وعرضك ، ولا تفرط فـــي كرامتها إلا معك . وهي التي تحمل إليك الطعام وتطبخه بنفســـها وتأكل معك في العشة . تدعوك كثيراً إلى دارها لكنك تأبى ذلـــك . كأنك تقاطعها لأنها ثرية مثل أخيك الذي تقاطعه . أخـــي لا يـــود أحداً . وليس له مثيل . إن آمالاً تقلد الإنجليزية زوجـــة أخـــي . أنجبت بنتاً فولداً فبنتاً كأنما تريد أن تزوج أبناء العم بعضهم لبعض . كان لها – وهي صغيرة – اتصالات بنار ، فلما عرفت أنه أخي ويتبرأ من أخيه قاطعته . لم تعد تبيع لجـــاك بـــالانس القطـــن . صارت تبيعه لتجار القطن المصريين ، وترفض أن تبيعه لأخي .

الأولاد يتساءلون عن معاملتي لأمهم الحنونة . ولكنهم لا يعرفـون أنها عقدة الفقر ، هي التي تجعل التباعد بيننا دائماً .

لم تحزن آمال على الاستيلاء على ثلاثمائة فدان مـــن أجـود أراضيها بسبب تحديد الملكية كأنما كانت تتمنى أن تفتقـر حتـى تتساوى رأسي برأسها . ورغم ذلك لا زالت عقدة الفقر تلف حبالها حول عنقك وتكاد تخنقك . . وانكسر نار بعد تحديد ملكيته بمائتين فدان له ولأسرته . هربت الأطيان من يـــده وكـــان لا يريـد أن يشاركه أحد فيها . هل أنت شامت فيه ؟ ..

(٢٧)

تأكدت آمال أن أبا عوض قد حصل على خمسة أفدنـــة مـــن الأرض التي استولت عليها الحكومة . بل تأكدت أن عوضاً بعد أن خرج من المستشفى رفض نار أن يعيده إلى العمل حتى لا يرتكب مخالفة جديدة ، واستخدمه نور في المصنع اليدوي . وكانت حجـة نار أن عوض أهمل في عمله فيكون جزاؤه الطرد . رفضت آمال أن تناقش نفسها في رعايتها لعوض ، رغم أنها كفلت لـــه العمـل وعالجته من إصابته على حسابها . وكانت تحث نفسها على قطـع

الصلة به ، غير أنها كانت مندفعة واستمرت في العناية به ، وامتدت الرعاية إلى عائلته الكبيرة .

كان الفلاحون ينتظرون أن تحزن آمال على ما فقدته من أفدنة بسبب الإصلاح الزراعي وتنكمش ولا تستمر في رعاية الفلاحين بسبب تحديد ملكيتها ، غير أنهم لم يروها حزينة يوماً ما . بل زادت خيراتها أكثر مما كان . ولم يلاحظوا رعايتها لعوض لأنها ترعى الفلاحين معه . وكانت تستغرب أنها تحب عوض غير أنها لا تقدم على الانفصال عن نور . كانت تخشى أن يشب أولادها بعيداً عن أبيهم . وتنشأ أسرة مفككة ويصيب أولادها من الآلام ما قد تكون هي أحد مسبباته . لذلك كتمت حبها في قلبها ، واستمرت على علاقة الود بعوض ، وتقديم واجباتها الزوجية لنور .. زوجها وحبيبها السابق في نظرها .

(٢٨)

قالت هيدي : سوف أسافر إلى بريطانيا وسآخذ معي الأولاد . إن أهلي قد وحشوني . وأريد هم أن يتعرفوا علي مصطفي وطه وخديجة . قال نار بلا مبالاة : سافري .. مع السلامة .

غير أنها سافرت ولم تعد .. وحجزت الأولاد معها ولم تعدهم إلى أبيهم . وكانت تظن أن ناراً سوف يجن جنونه . وفوجئت أن أباها يبلغها هاتفياً أن ناراً لا يشعر بفراغ لهجرها إياه أو لعدم رؤية الأطفال . قالت هيدي : حاول أن تصفي أعمالك معه .. إن الصحف هنا تنقل إلينا عداوة رجال الثورة المصرية للإنجليز . وغداً سوف يستولون على حصتك في الشركة ويطلبون منك مغادرة البلاد .

قال جاك : أنا أحس بذلك .. رغم المفاوضات بيننا وبينهم . ولكن يبدو فعلاً أنهم يضمرون شيئاً .. يريدون تمصير المنشآت الأجنبية .

قالت هيدي : إذن عليك بتصفية الشركة .

سألها : ألن تأتي يا هيدي ؟ ..

قالت : لا .. سوف أبقى في بريطانيا ومعي الأولاد . وسأعمل على تغيير أسمائهم ونسبتهم إليك . قال جاك : ربما يلاحقك نار أمام القضاء . قالت هيدي دون أسف : إذا عرف مكاني .. ربما أذهب إلى الهند .

(٢٩)

سألت آمال : ما رأيك يا نـــور أن اشــتري حصـــة الرجــل الإنجليزي في المصنع الميكانيكي الذي يملكه نار معه ؟ ..

أجاب بامتعاض : وما لي أنا وذلك المصنع . ثـــم هـــذه هـــي نقودك .

قالت : إنها ليست نقودي . إنها نقـــود أولادي منـــك وســـوف اشتري الحصة باسمهم ، وما دمت ولي أمرهم ، لذلـــك فالحصـــة خالصة سوف تخضع لولايتك .

هز رأسه وقد فهم . ثم قال : إن شركة مع نار لهي شركة مـــع جهنم الحمراء ،، فلا أوصيك بذلك . يمكنك أن تقيمـــــي مصنعـــاً ميكانيكياً مثله لو أردت .

قالت : كنت أريد أن أشتريه لتتولى أنت أمر الشركة .. ولكـــن يبدو أنك لا تريد شركة مع نار .

قال : هو لا يستطيع أن يبلع الرجل الإنجليزي فوراءه الســـفارة البريطانية تسانده . ولكن بسهولة يبلعنا ، فوراءه الشرطة والملـــك والحزب الحاكم ، فلم نعطيه هذه الفرصة ؟ ..

جاء وديع يقول لها : نار لن يبيع .. سوف يشتري حصة جـــلك بالانس .

سألته : كيف ؟ ... ألم تقل لي إنه لا يملك مالاً سائلاً يشتري به الحصة .

قال : سوف يبيع أرضه الزراعية .. لن يبقى إلا مائة فدان لـــه ولأسرته .

وتعجبت آمال في كلمة أسرته .. أين هي تلك الأســـرة . لقــد هجرته عائلته منذ زمن طويل .

(٣٠)

كانت فرصة أن يعترف بأخيه نور ، قبل أن يستولي الإصـــلاح الزراعي على الفدادين الزائدة عن مائتين فدان ، وذلك بمنحه هـذه الفدادين الزائدة على أساس أنه ابن كريم من زواج عرفي . غـــير أن ناراً لا يريد أن يعترف بأخيه من قريب أو بعيد . واعتـــبر أن نوراً ولد سفاحاً ، ولا ميراث له . كان وديع يلح عليه فـــي ذلـــك تلميحاً لأن التصريح يثير غضبه . وهو يستنكر الإلحاح في ذلـــك الموضوع .

وقال له وديع ينصحه : يجب أن تبدأ في بيع أراضيك الزراعية لأنهم إذا كانوا قد بدأوا في تحديد الملكية فـــي الأرض الزراعيـــة

بمائتين فدان للأسرة ، فسوف يخفضون من ذلـــك فيمـــا بعـــد ... ويستولون على مائة أخرى .

نظر نار ملياً إليه وتساءل : أتظن ذلك ؟ ..

قال بثقة في نفسه : أكيد .

قال نار ، والدهاء ينبثق من عينيه لا معاً : إنها فكرة أن أبيـــع الأرض الزراعية وأعطي جاك بـــالانس حصتـــه فـــي المصنـــع الميكانيكي ، فليس لدي أموال سائلة . وهو يصر على أن يـــترك البلاد ، يقول بلغة سوقية : لم يعد لنا فيها عيش يا حبيبي .

قال وديع : يبدو ذلك بعد أن اتفق الإنجليز مع رجـــال الثـــورة على الجلاء .

سأل نار قبل اتخاذ هذه الخطوة : ما رأيك لو طلبنا من آمال أن تشتري حصة جاك بالانس في المصنع .. هل ترضى ؟ ..

قال وديع : معنى ذلك أنك سوف تكون شريكاً لنـــور دون أن تدري ..

وعاد إليه – كما هي عادته – خائب المسعى .

(٣١)

قال وديع : ألا تخشى على أولادك من أمهم ؟

أجاب نار : مم أخشى ؟ ..

قال وديع : لقد تسربت كالبخار من مصر .. ومعها أبناؤها . وتسرب أبوها من بعدها .

قال نار ضاحكاً : كالدخان .

ابتسم وديع ونار يتناغم معه قال : ربما تجعلهم يقطعون الصلة بينك وبينهم .. وربما تسعى إلى تنصيرهم .

قال نار مقاطعاً : إنها امرأة لا دين لها ، فكيف تسعى إلى تنصيرهم ؟ ..

قال وديع مغتاظاً : سوف تحولهم إلى من لا دين لهم ..

قال نار ممتعضاً : لا أهمية لذلك .. ومن منا يتبع قواعد دينه .

قال وديع هامساً لنفسه : حقاً أنت الآخر لا دين لك .. كنت أظن أنني سأحرك فيك النخوة فترسل في طلبهم وتحدث بينك وبينها المشاكل وأنا أبقى بعيداً أتفرج .. حقاً أنت تعبد المال ولا شيء غير المال . .

قال نار يستشف ما يهمس به لنفسه : لعلك تقول الآن أنني – أنا الآخر – لا دين لي .. وأنني من عبيد المال ..

قال وديع مرتبكاً : وهل أجرؤ ؟ ...

انصرف وديع بعد أن أكتشف أن ناراً يمكنه أن يسبر الأغوار ، وأنه عرف أنه يذمه وهو صاحب الفضل عليه ، ولو أنه لا يعترف بهذا الفضل . وهو مقتنع تماماً أن الفضل من عند الله سبحانه وتعالى .. لولا لقمة العيش لما جاريت ذلك الأفاق في مسعاه في الدنيا . معنى ذلك يا وديع أنك سوف تطيح به يوم تصبح لقمة العيش آتية من جانب آخر ؟ ...

(٣٢)

كانت تتأمله بامتعاض . لا يزال يرتدي ثياب العمل حتى وهو في عشته . يستحم في مياه النيل وهي تجري في الرياح . لا يقبل أن يدخل قصرها ، رغم أن الجميع يعرفون أنه زوجها . يحافظ على عهده بألا يكون غنياً ولا يكون للأغنياء فضل عليه حتى زوجه . ويقضي حاجته في الخلاء ، رغم أنها طلبت منه أن تصنع له حماماً يقضي فيه حاجته بجانب عشته ، وله اتصال بمواسير الدار الكبيرة .

شعرت أن حبها ضعف بسبب مظاهر التخلف التي تراها ويتمسك بها . غير أنها تبقى على عشرته رعاية لأولادها الذين يعشقونه . يعرفون الآن أنه أبوهم . ويهرعون إليه عندما يعود من

المصنع ويلعبون في الحديقة المتصلة بالدار أمامه . يأكلون معـــه طعام العشاء كأنما يؤكدون له إنهم الجانب الفقير أكثر من الجـــانب الغني . ولو أنهم لا يبيتون عنده . حياتهم منقسمة بيــــن الـــترف والفقر .

تتغذى آمال روحياً فقط برؤية عوض في الحقل . والغريب أنه يتصرف كأنما هو في المدينة والحضر وهو يساعد أباه في حقلـــه بعد أن تنتهي ورديته في المصنع اليدوي . صار العمـــل ثمانيـــة ساعات ، لذلك يجد وقتاً كافياً – بعد العصر – في مساعدة أبيه في ري أو حرث أو جنى محصول الفدادين الخمسة التي سلمها إيــــاه الإصلاح الزراعي .

تتحدث معه كثيراً في شتى الموضوعات . ينبئها أنه يريــــد أن يستكمل تعليمه ولكن يبدو أن ظروف العمل لا تسمح . تقول لـــه : استكمل يا عوض . وأنا أساعدك . يخجل عوض ثم يقول : علـــى بركة الله . ليس لديه تلك الأنفة التي تحول دون مواصلة تعليمـــه بسبب أن امرأة تريد أن تتدخل . يكاد يستشف أن آمال تحبه ، وان حبها لزوجها هو الظاهر ، وحبها له هو الباطن . بيد أنها لا تبوح بشيء .. تكتم السر في قلبها .

(٣٣)

فوجئ نور بعوض يقدم استقالته ، ولمـــا ســـأله : ومـــا هـــي الأسباب ؟ .. أجاب عوض بصراحة : أريد أن أتفرغ للدراســـة . استغرب نور أن يفكر عوض في الدراسة بعد أن انقطـــع عنـــها زهاء خمس سنوات بعد حصوله على دبلوم الصنايع . . ونظر إلى حاله : المال يجري الآن بين يديه . وزوجه امرأة ثريـــة . وأولاده بدأوا يدخلون المدارس الحكومية . وتساءل : ولم لا أتـــزود أنـــا بالعلم . إن خير الزاد التقوى . والعلم هو وســـيلة مـــن وســـائل الوصول إلى التقوى . إنه من وسائل الأتقياء في هذه الدنيا . وقرر نور خفية أن يلتحق بأحد مدارس البندر الليلية بعد أن يفرغ مـــن إدارة وتشغيل المصنع اليدوي . " إذا كان أبي لم يفكـــر فـــي أن يلحقني بمدرسة ، فأنا قادر الآن على أن ألحق نفسي بها . ولأتفوق على أخي نار الناكر للأخوة أبداً . "

استغربت آمال اختفاء نور من العشة في ساعات الليل الأولى ، إن نوراً لا يعود إلى عشته في المساء ، وقد يعود بعـــد الســـاعة التاسعة مساء . ظنت أن نوراً لا يريدها ، وأنه يفتعل الغياب حتـــى لا يراها ولا يرى أولادها ، فامتنعت عن الذهاب إلى العشة ، بـــل

منعت الخادم خضرة من أن تـــزوده بالطعـــام إلا فـــي المصنـــع اليدوي . واستمرت تحمل إليه الطعام ظهراً .

وفي يوم الجمعة ذهب الأطفال إلى أبيهم حباً في رؤيته . ولمـــا سألوه عن أسباب غيابه عن العشة بعد المغرب ، وكان يعود إليـــها بعد انتهاء ساعات العمل . قال لهم : أريد أن أكون أباً جديراً بكم .

(٣٤)

كان أقصى ما وصل إليه نار من تعليم هـــو التوجيهيـــة . ثـــم لاحت في ذهنه الأمور الشيطانية فحرض وديعاً على قتـــل أبيـــه وزوجة أبيه . ثم استوى على مقعد المصنع يديـــره بذهـــن بليـــد وضمير ميت . ولما أصبح المصنع الميكانيكي تحت يده بأكملـــه . حاول أن يوفر في التكاليف فعاد يأمر العمال بالعمل اثنتي عشـــرة ساعة في اليوم . ضج العمال بعد أن تمتعوا طويلاً بثمانية ساعات في اليوم . وكثرت حوادث إصابات العمل لمـــا أصبـــح نـــار لا يصرف على تجديد أدوات الأمن الصناعي . واضطر أن يجددهـــا تحت وطأة حملات التفتيش على أمن المصنع المستمرة .

بدأت العيوب تظهر في الأنسجة المصنعة وقل إنتـــاج العمـــال بسبب الإرهاق في العمل .

جن نار أمام مؤتمر للعمال عقده ، واحتج نار على العمال الذين يطالبونه بزيادة الأجور .

قال نار : كيف أزيد أجوركم وأنتم تصنعون النسيج رديئاً لا يتم تصريفه إلا في الأرياف . أصبح المصنع الميكانيكي ينتج إنتاجاً أحط من المصنع اليدوي ، ذلك الذي اشترته مني آمال هانم .

تقدم صفي الدين كبير العمال صفوفهم وقال : نعود من جديد إلى ثماني ساعات ولسوف تشهد بنفسك أن العيوب في النسيج قد انتهت .

قال نار محتداً : هذا ليس كلامك . هذا كلام السيد نور الذي يوحي إليكم بذلك .

قال صفي الدين : أنا لا أعرف نوراً هذا الذي تتكلم عنه . أنا أعرف الحق والقانون . والقانون لا يعطيك حقاً أكثر من ثمانية ساعات . وما زاد على ذلك فله أجره الإضافي .

قال نار خاضعاً : مادام أن الإنتاج سوف يتحسن فلا بأس أن تعملوا ثمانية ساعات .

(٣٥)

دخلت آمال على نور متسلحة بالشجاعة . وقد استغرق هجره لها أكثر من سنة كاملة . وقالت : أريد الطلاق .

ارتبك نور وسأل : ولم ؟ ..

قالت : الزواج ليس عقداً يُكتب . ثم يترك الزوج زوجه دون علاقات عاطفية ومادية وروحية .

طأطأ رأسه كأنما يريد أن يقول لها إنها فرضت عليه نفسها باختلاس اللذة منه رغماً عنه منتهزة همود جسده نتيجة العمل المتواصل . وأنها حملت فاضطر أن يتزوجها . لكنه لم يجرؤ على أن يقول ذلك لأن مسئوليتهما مشتركة . وكان يجب أن يكون زواجه كاملاً أو يصارحها بأنه لا يستطيع أن يتمادى في علاقته الزوجية . إن وضعه الآن أشبه بعشيق ليس مسئولاً عن بيت أو أولاد . علاقة شاذة كرهها غير أنه لم يكن قادراً على اتخاذ قرار فيها . وبعد لأي وقال بلسان أعوج : أنت طالق .

خرجت آمال من العشة ، وقد أدركت أنها تحررت من ربقة علاقة شاذة . استمرت زهاء سنوات مضنية ذليلة . كانت هذه العلاقة لا ترضى عنها ، غير أنها اضطرت إلى الاستمرار فيها من أجل أولادها . ولما شب الأولاد وصار ثلاثتهم يذهبون إلى المدرسة ، وجدت أن لا داعي لاستمرارها ، ففسختها رغم ما سبب لها الفسخ من ألم . كانت هي التي تلقي إلى جذوة النار بالحطب ، ولم يكن يفعل شيئاً من جانبه .

(٣٦)

رغم أن المال يجري بين يديك ، ولك تلك الشـــركات نســيج ومقاولات ومحاجر والأراضي الزراعية ، إلا أنك ورثت من أبيك تطلعه إلى الفقيرات . كيف سولت لك نفسك أن تجذب تلك المــرأة – زهرة – التي تعمل في صبغ التريكو ؟ .. وتحولها من رئيســة عاملات إلى زوجة رجل محترم ؟ .. يبدو أنك من محبي الدمامــة يا نار ، فالمرأة ليست جميلة إلى درجة مبهجة . لا .. ولكن بـــها أنوثة طاغية . يكفي صدرها الناهد . وتكفي عيناها الواســعتان . وفمها المكتنز . إنها أمتعتني قبل أن أدخل بها . ولولا بكاؤها المر الذي مزق نياط قلبي لكانت مستمرة في أحضاني دون توقيعات من شهود أو مأذون . لقد شبعت من جمال هيدي الفارة من قبضتـــي . ولم يعد يهمني الجمال خاصة إذا كان خالياً من الأنوثة . اعتـــبره جمالاً جامداً كلوحة فنان تتمتع برؤيتها ولا تفكر أن تضمها إلـــى صدرك .. أريد جمالاً باطنياً أخفيه في صدري .

لما قبلت زهرة أن تتزوج من نار . صممــت ألا تعيــش فــي البلدة . قررت أن تقيم بصفة مستمرة في كفر الزيات ، بعيداً عــن المصنع وعمال المصنع . حتى لا يشير أحدهم إليها ويقول : هــذه كانت عاملة عندنا . وبنى نار داراً لها على قطعة أرض خلاء في

كفر الزيات . وصار يذهب ويجئ إليها كل يوم أو يوم بعد آخر . ويتفرغ في أيام الجمع لأحضان مبروكة في داره القريبة من المصنع التي لم تستطع زهرة أن تنسيه إياها .

(٣٧)

في شقته الجديدة الصغيرة في المحلة الكبرى ، تطلع نور - لأول مرة في حياته - إلى بنت الجيران . وجد أنها مليحة ، محافظة ، تميل إلى القصر ، وتنحو نحو البدانة . ولم تشاغله تلك الفتاة - التي عرف أن اسمها نرجس - مثلما كانت تشاغله آمال . استغرب أن لا تشاغله ، لكنه احترم فيها أن تكون محافظة .

استطاع أن يمتحن في الشهادة الإعدادية . وكان يجب أن يواصل تعليمه بعد أن حصل على الشهادة الابتدائية في العام الماضي . واستطاع أن يعقد صداقة بين والد نرجس ذلك لأنه كان مدرساً للغة العربية في مدرسة ثانوية خاصة ليلية . فأكبر فيه الأب أن يعمل وفي نفس الوقت يدرس . وافتخر به الأب بين عائلته لما عرف أنه مدير مصنع يدوي في قرية من القرى القريبة

من المحلة الكبرى . ولكنه لم يعرف أنه مطلق وأن له ثلاث أولاد هم حنيفة وإبراهيم وصفاء . .

جاءت يوماً آمال إلى المصنع ، لتتفق مع مديره – طليقها – على أن يتخذ الإجراءات في سبيل أن يكون المصنع لأولادها الثلاثة للبنتين النصف وللولد النصف الآخر . وأن يكون نور ولياً عليهما . ثم أردفت أنها تريد أن تهبه مائة فدان مما تملك ، لأنها سمعت إشاعة تقول إن هناك إصلاحاً زراعياً قريباً وسوف يتحدد للأسرة مائة فدان . وما دام هو طليقها فلا أهمية أن تكون الفدادين المائة في حوزته ، ولكن لو كانت في حوزتها ، فسوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الحكومة . وبعد ذلك ستؤول الفدادين بعد عمر طويل للأولاد .. أبنائهما .

(٣٨)

امتنعت مبروكة عن تسليم جسدها لنار ، فاشتعل غضباً . وقال مهدداً : سوف أطردك من خدمتي . غير أنها قالت : أريد أن أكون امرأة شريفة . هل هذا يغضبك ؟ .. ولا تقول لي إنني خادمة ومن طبقة ليست طبقتك لأنك تزوجت من عاملة تريكو في مصنعك . قال لها : تزوجت منها حتى تلد لي .. أبناء بدلاً من

الأبناء الذين هربت بهم الإنجليزية السافلة . قالت : أنت تعرف أنني لا أنجب . فما المانع أن تكسب علاقتنا شرعية حتى أمشي في البلدة مرفوعة الرأس . وما سوف يضيرك لو تزوجنا ، فأنا لن أنجب أولاداً منك حتى يعيروهم بأن أمهم خادمة . وأنت لن تهتم بكلام الناس وإلا ما تزوجت من عاملة . أنت قادر على سحق كلام الناس .

هز رأسه وقال : لا مانع يا مبروكة .

فرحت مبروكة كأنما جاءتها البشارة أنها حامل . ولما آخذها إلى مأذون ، كان المأذون في الإسكندرية . والشاهدان على العقد من سكانها . وعادت إلى البلدة مرفوعة الرأس . وبدأت تسرب نبأ زواجها من الوجيه صاحب المصنع والمحجر وشريك في شركة مقاولات نار كريم .

شعرت مبروكة أن الناس لم تهتم بالخبر ، كما يجب . وكتمت غيظها في قلبها . وبدأت تتصرف في دار البلدة كما كانت تتصرف سيدة الدار الإنجليزية .

(٣٩)

قبل نور أن تؤول إليه مائة فدان . وصدر قـــانون الإصـــلاح الزراعي ، فأعلن نار شماتته في آمال التي رفضت زواجها منـه ، . ثم باخت شماتته حينما وجد أن الأرض قد آلت إلى مطلق آمـال الذي ينكر أخوته . وتمنى نار أن يطعن الإصلاح الزراعي فـــي أيلولة الأفدنة المائة إلى نور . غير أن آمال كـانت قـد سـجلتها باسمه . ولم يفكر مسئولو الإصلاح الزراعـــي أن يطعنـوا فـــي مستندات الملكية لأنه تمت بطريقة شرعية . ولـــم يسـتطيعوا أن يدعّوا أن الأسرة تملك أكثر من مائة فدان ، ذلك لأن نوراً قد طلق آمال منذ زمن بعيد .

قبل نور أن تؤول إليه الأطيان ، رغم أنه يتعفف أن يمد يـــده للأغنياء ، ولا يطلب منهم جزاء إلا على عمله . وذلك لأنه وجـد أن ابنه إبراهيم سوف تكون في ذمتهما مائة فدان وكـــلا البنتيـن حنيفة وصفاء لها خمسين فداناً من أجود الأراضـــي الزراعيـة . وهذه الأفدنة جميعها تؤول إليهم منه ومن أمهم .

في ذلك اليوم تقدم نور لخطبة نرجس ، فقبل عبد الغني أفنـدي عرض نور . وذاع الخبر في المحلة الكبرى غير أنه لم يصل إلى بلدة نور حيث المصنع اليدوي والأرض الزراعية وآمـال وأولاده منها . ولم يتقيد نور بما درج عليه أهل القاهرة من إعلان الـزواج

والخطبة بخاتمين ، لكنه اشترى للعروس واحداً ، ورفض أن يشتري لنفسه ، لأنه يكره هذه العادات الأوربية التي لا معنى لها ، لذلك لم يكتشف أحد في بلدته أنه تزوج .

(٤٠)

عاد الشيخ عبد الباسط من الأراضي الحجازية ، بعد قضاء أكثر من عشرين سنة هناك . عاد يروي كيف مات الشيخ عبد النعيم هناك ، ودفنه في البقيع مع الصديقين . رجل طاهر مات في بلاد طاهرة . ولما سأل الشيخ عبد الباسط عن ذلك الرأسمالي الكبير الكريم واسمه كريم وزوجه الفلاحة الفقيرة . قال له شيوخ البلدة أنهما احترقا في عشة الزوجة . انتفض الشيخ عبد الباسط جزعاً . وسأل : وماذا حدث لابنهما نور . أجاب الشيوخ أن الولد نجا لأن أباه كان قد استخدمه في المصنع اليدوي الذي يمتلكه . وكان الحريق عند الغروب قبل حضور الولد من المصنع .

استغرب الشيخ أن يهين الأب ابنه بهذه الدرجة ، لكن بعض الحكماء علل الأمر بأن الأب يريد أن يكون الابن رجلاً . الناس دافعت عن الرأسمالي بأنه كان يريد لابنه أن يشب رجلاً متمرساً بالعمل . ولعله كان يدربه على أن يخلفه في إدارة المصنع . كان يريد أن يشرب الحرفة ، ويعهد إليه بعد ذلك بالمصنع لأنه يجد أن

ابنه نار لن يؤدي العمل كما يريد . لكن انتهاء الأجل داهمه ، فمات محترقاً ، وأنكر أخوه نار أخاه ، وحرمه من الميراث . ولو أنه سمح له أن يستمر عاملاً إلى أنه باع المصنع اليدوي لينشئ مصنعاً ميكانيكياً . استغرب الشيخ عبد الباسط تصرفات نار . وتساءل : كيف لا يعترف به أخوه نار وهو ابن من زواج شرعي شهدت على العقد فيه أنا والشيخ عبد النعيم . سأل سائل : وأين العقد ؟ .. قال الشيخ عبد الباسط : إنه في خزانة خشبية تركها الشيخ عبد النعيم لزوجه .

(٤١)

انتظر الشيخ عبد الباسط نوراً أمام عشته . قيل له إنه لا يأتي إلا ليلاً لأنه يذهب إلى مدرسة ليلية في المحلة الكبرى يدرس فيها للثانوية العامة بعد حصوله على الابتدائية والإعدادية . وكان نور قد أذاع خبر اتجاهه إلى التعليم ثم الزواج حتى يعرف الناس لم يتغيب عن عشته . . وقالوا له إن ابن عوض – ما شاء الله – بعد أن حصل على دبلوم الصنايع منذ زمن ، حصل من جديد على الثانوية العامة ، ودخل الجامعة في معهد للفنون التطبيقية . وأنه على وشك أن يتخرج مهندساً من مهندسي النسيج . فالمهنة تجري في دمه منذ أن تعلمها في المصنع اليدوي . وأن أباه يعوله بعد أن

حصل – وكان معدماً – على أرض زراعيـــة مقدارهـــا خمســة أفدنة . ولم يكن أحد يعرف أن آمال – صاحبة الأرض الزراعيـــة الكبيرة – تمده بالمعونة المالية حتى يكبر ويرتقي .

لما زهق الشيخ عبد الباسط من الانتظار . وكاد يغادر مكانـــاً قريباً من العشة حتى رأي نوراً آتياً . لم يكن يعرفه . ولكن نفـــراً ممن رافقوا الشيخ عرفه به . ودخلوا معه العشة ، وقال الشـــيخ : جئت أسلمك وثيقة زواج أمك من أبيك . قال نور مضطرباً : لكني اعتقدت يا شيخنا أنها احترقت مع احتراق أبي وأمي في العشة .

قال الشيخ عبد الباسط منبسطاً : كان الشيخ عبد النعيم يحتفـــظ بها في صندوق خشبي في بيته . ولمـــا جئـــت مـــن الأراضـــي الحجازية . وسمعت حكايـــة رفـــض أخيـــك لـــك . قـــررت أن أناصرك . قال نور : وماذا أفعل بها ؟ .. قال الشيخ عبد الباسط : تثبت أمام العالم – على الأقل – أنك ابن شرعي لكريم .

(٤٢)

لم يلبث الشيخ عبد الباسط كثيراً مع الرجال الذين استقبلوه بحفاوة . كان يريد أن يقيم الحق ولو على قطع رقبته . توجه إلى زوج الشيخ عبد النعيم يعزيها في وفاة زوجها في الأراضي الحجازية منذ أكثر من سبع وعشرين سنة . ويطلب منها أن تبحث عن صندوق خشبي به وثيقة زواج شوقية بالرجل الثري كريم .

جلس الشيخ عبد الباسط يروي لأبناء الشيخ عبد النعيم كيف مرض أبوهم وأسلم الروح ودفنه بنفسه وفضل أن يبقى مجاوراً في الحرم المكي الشريف ، وقد عاد إلى البلاد بعد أن توحدت سوريا ومصر ، وجاءه هاتف أن يحق الحق في أرض مصر . ولم يكن يعرف أن الحق هو رد الاعتبار إلى نور .

جاءت المرأة بعد قليل تحمل صندوقاً خشبياً أقسمت أنها لم تفتحه ولم تسمح لأحد من أبنائها الذكور بفتحه زهاء السنين الطويلة . استخرج الشيخ عبد الباسط وثيقة زواج شوقية بكريم . وقال : عن هذه الوثيقة تخص نوراً .. ذلك الذي حُرم من الاعتراف ببنوته من كريم . وحرمه أخوه من ميراث أبيه .

قالت المرأة : إن نوراً لا يحتاج لأحد .. فقد وهبته مطلقته أرضاً مقدارها مائة فدان . وهو يعمل مديراً لمصنعها اليدوي الذي اشترته من نار .

قال الرجل : لكنه يمشي في البلدة حاملاً عاراً وهمياً على رأسه بأنه ولد سفاحاً .. وهو ابن شرعي من زواج شرعي . يكفي أن يعلن القضاء أنه ليس ابن حرام وأن أباه كريم تزوج من أمه زواجاً عرفياً شرعياً .

(٤٣)

فوجئ نار بدعوى مرفوعة عليه جاء المحضر يبلغه بعريضتها . وهي إثبات نسب نور إلى أبيه كريم . كنت أظن أن هذا الولد لن تكون له قائمة . وهاهو يحاول أن يتطاول عليّ وأن يجعل رأسه برأسي .

التقى نور بنار لأول مرة في ساحة المحكمة . وقال له : لا تفكر أنك سوف تحصل على ميراث . قال نور : أنا لا أحتاج لأموال استوليت عليها . خذها ابتلعها .. أنا لا أريد إلا ان أثبت للعالم فقط أنني ابن كريم . ابن شرعي من صلب ذلك الرجل .

قال نار : والمحامون الأربعة واقفون بجانبه : أبقى قابلني .

ضحك الشيخ عبد الباسط الذي كان واقفاً بالقرب من نور . جاء يشهد أن الزواج حق وأن نوراً ابن كريم الرأسمالي الوطني

الكبير . وأن أخاه نار الرأسمالي المستغل لا أهميـة لاعترافـه أو عدم اعترافه . إنما الأمر حينئذ للقضاء .

زهق نور من تأجيل القضية .. ومن تقديم المرافعات .. إلـى تقديم الإثبات .. إلى تعيين خبير لمضاهاة توقيع كريم بتوقيعاتـه أثناء حياته . وأخيراً نطقت المحكمة بالحكم وهو ثبوت نسب نـور لكريم والاعتراف ببنوة نور لكريم . وأنه يرث في التركـة التـي تركها كريم مناصفة بينه وبين أخيه نار .

(٤٤)

فرح نور بحكم القضاء . وقرر نار أن يستأنف الحكم ويطعـن بالبطلان . ربما يلغي الحكم حكم الاستئناف . لكن كيف سيثبت أن نوراً ليس ابن كريم ولديه إثبات أكده الخبير أن العقد بخط كريـم . وفي ذلك الوقت ، عرفت زهرة أن نوراً رفع قضية على أخيـه ، فانتهزت الفرصة ، وضغطت على نار أن يكتب باسمها داره فـي كفر الزيات بيعاً وشراء ، خاصة أنه بناها بعد موت أبيـه ، وقـد يحاول نور الاستيلاء عليها على أساس أنها من ريـع التركـة أو على الأقل أن يكون شريكا في ملكيتها ، وأوهمته أن ذلـك فـي صالحه ، وأخذ نار يفكر في تلك الصفقة ، وأن لا أهمية أن تكـون

الدار باسمها أو باسمه ، لذلك نقل ملكيتها إليـــها . وأخــذ ينتظـــر صدور حكم الاستئناف . ولم ينفع دفاع المحـــامين الأربعـــة مـــن محاولة التشكيك في الزواج العرفي وأنه لا يعتد به . وقال محامي نور إنه لا يعتد به فعلاً في ترتيب حقوق للزوجة لكن يرتب حقوقاً للأولاد ثمرته . يثبت نسبهم ويثبت حقهم في الميراث مـــن أبيـــهم وأمهم أيضاً .

في يوم صدور الحكم ، عقد نور على جارته ، بنت المدارس ، وشعر لأول مرة وهو يدخل بها أنه إنسان له كيان ، وأنه صـــاحب بيت ، وأن له زوجة أحبها قبل أن تحبه .

(٤٥)

فرحت آمال لإثبات نسب نور إلى أبيه . وقدمت إلى المصنـــع لتهنئته على كسب القضية . شكرها غير أن رده لم يكن حـــاراً . قالت : أتعرف أن لك في هذا المصنع النصف ؟ .. قال : نعـــم .. ولكني لا أريد شيئاً . يكفي ما ملكتني من مائة فدان . قالت : لكنك لم تتسلمها وتركتني أزرعها وتركت ريعها لأولادك . قال : هـــذا حقك ، فليس من العدل أن تنزع منك الملكية وتؤول إلى آخريـــن

رغما عنك . لذلك رأيت أن أظهر عليها بمظهر المالك على أن تستمري في حيازتها ويعود خيرها لأولادنا ..

تركته وقد عرفت أنه لا يمكن أن يرق قلبه ويحبها . وقررت بينها وبين نفسها أن تلتفت إلى ذاتها وتشبع رغباتها . وإذا كان هناك من لا يحبك فلا يجوز أن تكرهيه على الحب ولكن لا تتعلقي به . وإذا كان هناك من يحبك فاسعي إليه وتعلقي به . وكان قلبها قد تحول إلى ذلك العامل البسيط عوض الذي تحول إلى مهندس نسيج ، ويعمل في أحد المصانع الكبيرة في المحلة الكبرى . صار مهندساً بفضل مساعدات أبيه ومساعداتها وواصل تعليمه دون كلل أو ملل . ولكنه يخشى أن يخطو إليها . يلقاها فيبدو عليه الخجل ولا يمد يده لتناول معونتها لكنها تضعها في جيب بذلته رغماً عنه . والآن أصبحت لا تراه .

(٤٦)

رفض عوض بينه وبين نفسه أن يمد حبال الود بينه وبين آمال . إذ لا يزال الفارق بينهما كبيراً . هو فارق في السن أولاً ، فهي تكبره على الأقل بخمس أو ست سنوات . وهي ثرية تلعب بالمال لعباً ، ولو أن الإصلاح الزراعي اقتطع منها ثلاثمائة فدان في المرة الأولى ، ولم يستطع أن يقتطع منها شيئاً في المرة الثانية

لأنها تنازلت عن ملكية مائة فدان إلـــى طليقـــها قبـــل الإصـــلاح الزراعي الثاني . ثم حولت أراضيها من الزراعة التقليدية المعتمدة على القطن إلى زراعة بساتين وخضراوات فزاد ربحـــــها . لقـــد أصبحت أرضها بساتين غناء يجري فيها أريج المانجو والبرتقـــال والعنب والفراولة فازدادت ثروتها .

صمم عوض أن يرفع من مستواه من مـــــهندس لا صلـــة لـــه بالسياسة إلى مهندس عضو في الاتحاد القومي . ودخل في لعبـــة السياسة بعنف حتى أصبح من المهندسين المرموقين في ســـــنوات قليلة . ووعده المسئول السياسي أن يكافئه مكافأة لم يحلـــم بـــها . غير أن ذلك الوعد لم يحدث . ولو أن عوضاً استمر يعمـــل فـــي المصنع الكبير في المحلة الكبرى وفي نفس الوقت استمر عضـــوا في الاتحاد القومي . وبعد سنوات وجد نفسه أصبح فـــي التنظيـــم الطليعي وأنه أصبح من شباب الاتحاد المرموقين .

(٤٧)

كأن بين القبح والجدب علاقة . فمبروكة ليست جميلـــة لذلـــك فهي عاقر . وزهرة ليست حلوة وبينها وبين الخصوبة مســـافات . مرت سنوات على زواجه منها فلم تنجب فيها طفلاً . وقد ضـــــاع

أولادك يا نار الثلاثة مع هذه الإنجليزيـــة البـــاردة . لعلـــها الآن حولتهم من ديانة المسلمين إلى دين المسيحيين . صار لا يجوز لهم أن يرثوا من أموالي . فإذا مت فلن يكون لي وريث غير هـــاتين الزوجتين ، ولهما الثمن معاً ، ثم تؤول بقية التركة إلى ذلـــك الأخ الذي أنكرته ، وأثبت بعد أكثر من سبع وعشرين سنة أنه ابن كريم أبي ، أثبت أنه أخوك . هذه الدنيا غريبة ، ترفع من تشاء وتخفض من تشاء . وقد يكون الواحد فقيراً فيتحول بفعل فاعل إلى ثـــري . وقد يكون غنياً فإذا به يفاجئ بثورة تقلب الأوضاع فتقذف به فـــي صفوف الرعاع وتنزعه من صفوف الأثرياء .

لا حجة لزهرة ترفعها وتدعي أنني عقيم ، ذلك لأنـــي أنجبـــت ثلاثة أولاد من الإنجليزية الباردة . ولكنها تناوش حتى يتم طلاقـــها وتستقل بالدار التي كتبتها باســـمها وبنيتـــها بـــأموالي ، لا أفـــهم السبب ، لكن يبدو أنها تريد رجلاً يعيش معها لا يأتيها من حيـــن لآخر . ضغطت عليّ حتى صارت الدار ملكاً خالصاً لـــها وذلـــك تفادياً لإدعاء نور أنها من ضمن تركتي فلا يتيسر له أن يطالبـــها بها . ولو أنه لم يطالب حتى بجزء من الدار التـــي أســـكنها فـــي البلدة . ولم يطالب بجزء من المصنع الميكانيكي على اعتبار أن له في المصنع اليدوي نصيب قمت ببيعه وأودعت قيمته في المصنـــع

الميكانيكي . أخ عجيب حقاً . كل ما كان يبتغيه أن يقال أنه ابـــن كريم . فمن كان ينازعه في ذلك ؟ ..

(٤٨)

تخشى آمال أن تفقد أولادها ، إذ قد يطالب بهم مطلقها بعــد أن تتزوج ، ويحرمها منهم إلى الأبد ، لذلك امتنعت عن عرض نفسها على عوض ، مثلما عرضت نفسها على نور من قبل ، ولفظـــها بعد سنين ، عندما طلبت منه أن يلفظها . وكان قد هجرها فترة من الزمن لم تعرف وقتها فيها أنه يدرس في المحلة الكبرى .

غير أن آمال واصلت تشجيعها لعوض ، ومده بالمال ، كلمـــا تخاذل أبوه صاحب الأفدنة الخمسة عن إمداده به . ثم شـــعرت أن عوضاً يتباعد عنها ، وأدركت أن السبب هو فارق السن ، وأن لها أولاداً من زوجها الأول . علاوة على ثرائها الفاحش .

انتهزت آمال فرصة أن أولادها دخلـــوا المرحلـــة الثانويـــة . الأولى في الثانوية العامة والثاني في السنة الثانية والثالثة في السنة الأولى . وقررت أن تترك البلدة إلى دار أبيها في القـــاهرة . لـــم تفكر أن تكون مدارسهم في المحلة الكبرى ، إنما فكرت أن تتبـــاعد عن عوض كما تتباعد عن نور . ولم يعاتبها نور لأنه لم يعد يرى أولاده إلا في المواسم . كان مشغولاً بزواجه الجديد . تلك النعمـــة

التي نزلت عليه بعد طول شقاء . كان فيما مضى متزوجاً ولا يمارس واجبات الزوج ولا يمارس أبوته كما يجب . وأصبح الآن متزوجاً وسوف يمارس أبوته بعد أن تنجب له نرجس ابنه الرابع . وسخر من الزمن الذي ألحق بأخيه خسائر فادحة . الاستيلاء على جزء كبير من أرضه الزراعية . ولو أن تنبه بعد ذلك وباع بعضها لينشئ المصنع الميكانيكي . ثم فرار زوجه بأولادهما فحرمته من جو الأسرة الجميل . وهاهي نظرة الناس له على أنه رأس مالي وارستقراطي شرير . ألا تكفي هذه النظرة دليلاً على إذلال الزمن له ؟ ..

(٤٩)

قرر نار أخيراً أن يسرح المرأة المستغلة بمعروف . بعد أن بدأت تعامله معاملة سيئة لم يطقها . ولم يقبلها من قبل من امرأة . تتمنع ، وتطلب مطالب جديدة في كل لقاء . يطول الجدل بينهما في تلبيتها وفي فورة غضب طلقها . لقد تمادت وطالبت أن يكون لها نصيب في المصنع الميكانميكي . وقال لها : كيف أعطيك شيئاً لا أستطيع أن استرده فيما بعد . أريد ان أعطيك مالاً يؤول إلى أولادي من بعدي . وأنت لا تنجبين . " صدمت المرأة يا نار ،

وازدادت صدمتها لما أعلنتها أنها طالق ، ولن تبقى يوماً على ذمتك " .

انزوى في البلدة عدة أيام . ثم قرر أن يباشر أعماله بهمة .. فلتذهب النساء إلى الجحيم وليبق المال هدفاً سامياً . وتفقد حال العمل في المصنع ، وطلب من العمال بذل مزيد من الهمة ، وقرر أن يتوسع في المصنع باستجلاب آلات جديدة . وذهب إلى المحجر ، وكان يزوره لماماً ، ورأى هناك بؤس العمال ، وهم يفطرون بالبتاو والمش والعسل . ويشربون الشاي الأسود ، ويبدو هزالهم وهم يعملون . ولم يشعر بحزن عليهم ، إنما شعر بالفرحة وهو يرى هؤلاء البؤساء يعملون رغم فقرهم البدني والمعنوي ، يعملون بلا كلل ، وكل ذلك العمل سوف يتحول إلى ذهب يجري في يديه .

سافر إلى القاهرة ليسأل عن أرباح شركة المقاولات ، ووجد الرصيد ينتظره لدى الصراف ، فأغترف المال في حقيبة ، وعاد إلى بلدته منشرحاً . لقد تنازل القفل عن المال ، وهأنذا أتمتع به ، يريد فقط اعتراف المجتمع به .. سلم لي على المجتمع يا نور أفندي .

(٥٠)

نظر نار إلى هذه الفتاة الحلوة التي تمشي كثيراً أمام مصنعه الميكانيكي ، ويصادفها في الخروج والدخول . طويلة القامة يكاد طولها يقترب من طوله . بيضاء بعكس الفلاحات اللاتي عرفهن سمراوات . وعيناها خضراوان كأنهما حفنتا برسيم . وقال لنفسه : هذه هي مبتغاي . ورمق بإمعان جسدها البض وتتبعها وهي تمشي حتى عرف بيتها . وهو يشعر أنها لا تحس به . غير أن الفتاة منتبهة إلى أن رجلاً يتبعها .

سأل عنها فقيل له إن اسمها كوثر . وقال : أريد ان أشرب من ماء كوثر . وفهم الرجال الذين دلوه على اسمها أنه يريد أن يتزوجها . دخل نار على أمها واستغرب أن يكون قد شاهد هذه المرأة من قبل . غير أن المرأة أنكرت أنها رأته أو سمعت به . وطلب يد الفتاة . ترددت المرأة ، لكن الفتاة تدخلت ووافقت . وعقد مأذون البلدة القران بين نار وكوثر .

ولما دخلت داره وجدت فيها مبروكة . سألته : من هذه ؟ ... قال : خادمتك . ولما انفردت بمبروكة وسألتها : من تكونين ؟ . قالت المرأة بتحد : أنا زوجه يا عيني . . دخلت عليه وطلبت منه أن يطلقها ويطردها من البيت وإذا لم يفعل ذلك فلن ينالها . حاول معها لكنها تمنعت ولم يستطع الوصول إليها حتى بعد جهد جهيد .

ولم يفكر أن يطلقها لأنه يريد ولداً أو بنتاً ترثه من بعده . لا يجوز أن تؤول الثروة إلى نور بعد أن أثبت نسبه . ومبروكة التي تمكنت من فتنته وإمتاعه لا تنجب ، وهذه الجديدة قد تنجب . قام بطـلاق مبروكة وطردها من البيت . ولما دخل الحجرة وفي يـده إثبـات طلاق مبروكة ، وجدها نائمة ، فلم يحـاول أن يوقظـها وأجـل الاتصال بها إلى اليوم التالي

(٥١)

لم تقل له كوثر من تكون . كانت تريد أن تقول إنـها كوثـر فاضل بنت الرجل الذي قُتل في مصنعه ، وتـرك أهلـه للجـوع والجهل والمرض . وكانوا يعولون على المقتول كثيراً . وبدلاً من أن يعيشوا في دائرة الستر ، عاشوا في دائرة القحط . وصممـت أمها وهي معها على أن ينتقما لفاضل حتى يرتاح في قبره . وأخذا – منذ أن كانت كوثر صغيرة حتى شبت – يبحثان عـن وسـيلة يقتنصان بها روح ذلك الرأسمالي المستغل والعمل على قتلـه دون أن يوجه الاتهام إليهما . يتم قتله مثلما قُتل الأب المسكين . المـهم أن يتم اغتياله دون إدانة لهما . وفكرت الأم كثيراً وروح البغـض تلبسها وتفصل لها ثياباً ترتديـها فـي اليـوم خمـس مـرات ،

تفكر وهي تاكل السريس والجبن القديمة والخبز الرقيق . وتلعنه عند كل أذان . وأخيراً اهتدت الأم إلى وسيلة ناجعة وهي أن تتزوج كوثر من الثري السافل ، وأن تدس له السم قطرة يوماً بعد يوم ، بعد أن تجرده من كل أسلحته : المال والنساء اللاتي معه . وألا تسلمه نفسها حتى لا تنجب منه . وقالت كوثر : وكيف يحدث ذلك يا أماه ؟ ... تجاهلت سؤالها وراحت تقول : سوف تدسين السم له يوماً بعد يوم ستخور قواه ، ولن يتمكن منك . وحتى لا يرث أخوه من بعده كل أمواله طالبيه بأن يكتب لك المال كله ..المصنع والأرض . ثم يعطيك ما لديه من مال حتى تتصرفي وتحميله إلى المستشفى أو الطبيب ويموت قبل أن يصل إليهما ويؤول لك كل ذلك العز الكبير .

(٥٢)

دست كوثر السم الذي اشترته أمها من بقال في المحلة الكبرى . قال لها : إنه يقتل جملاً . أخبرته أنها تطلبه لقتل الجرذان الكبيرة. وخبأته في مكان خفي في مطبخ الدار . وكان نار يستعد ليزف نفسه إلى القمر الجديد في البيت القديم . وأكل حتى شبع . وشعر أن قواه ترتخي ، وأن الصداع سيفلق يافوخه .

وأن أنفاسه غير منتظمة . نام على غير عادته ، ولم يستطع أن يفعل مع العروس شيئاً .

لما نهض والعشاء يدخل أبواب المساء . نهض مثقل الأنفلس ، مضطرب الحواس ، وظن أنه أصيب بالعمى ، لكن الدار كانت ساكنة ، والليل قد دخل في عمر قدره بالساعات . ووجدها تنام على كنبة قريبة من الفراش الذي ينام عليه . خشي أن يوقظها فتفزع ، فبحث في الدار عن طعام ، وهو مرتخ الأعصاب ، ولا يعرف سبب هذا الاختناق الذي يحس به .

صمم أن يذهب في اليوم التالي إلى طبيب ، خاصة أنه شعر أنه لا يميل إلى الجنس الآخر ، وأن معنوياته انخفضت كثيراً .

خرج من الدار في الصباح إلى طبيب يعرفه في الإسكندرية . وطلب منه الطبيب أن يفحصه معملياً . وفوجئ بأن الطبيب يخبره أن قليلاً من السم دُس له في أكله . وأن ذلك هو السبب الذي جعله هامداً يترنح لا يتمكن أن يضبط نفسه .

(٥٣)

دخل عليها وهي تعد الأكل ، وقال لها : أتريدين أن تسميني يـا بنت فاضل ؟ ..

اضطربت كوثر وقالت : ما هذا التخريف ؟ .. ولم أسمك ؟ .. ربما تكون مبروكة تكيد لك . عرفت أنك سوف تطلقها فأرادت أن تسمك انتقاماً منك .

قال : ولكني تدهورت بعد أن أكلت من أكلك .

قالت : كل هذا الأكل .. وأحكم . وانظر ما إذا كنت سوف تتدهور أم لا ..

قال : وهل أنا أومن لك بعد اليوم .. سوف تغادرين هذا البيت .. ولن أطلقك .. سأرميك إلى الفقر من جديد .

قالت وقد أفصحت عن مكنون صدرها : مثلما رميت أمي من قبل ..أنا قلت يا أمي إنني لن أتزوج الرجل الذي قتل أبي . قالت لي إنه لم يقتله .. إنما الآلة هي التي قتلته . ولكن قلبك قاس كالحجر .. ولا ترحم .. ولم ترحم أمي فكيف ترحمني . تلفق التهم جزافاً لمخلوقات الله وتتبرأ من مسئولياتك . أنا لا يهمني أن أعود إلى الفقر ولا يهمني أن أبقى معك .

وألقت بحلة الطبيخ في الزبالة . وألقت بالأرز من الشباك . وهو مذهول لما تفعله ولغضبها وثورتها . كانت تريد أن تخفي

جريمتها الجديدة مادام شك تطرق إليه فيها . وغادرت الدار إلــــى غير رجعة . وهل ترجع بعد أن كشف أمرها .

يقول نار لنفسه : وأنا أتساءل أين رأيت أمها من قبـــل . إنـــها زوجة فاضل الميكانيكي .

ارتاح لما غادرت البيت . كانت تريد أن تقتله لكنها فشـــلت .. مازال لك في العمر بقية يا نار .

(٥٤)

كانت ليلة ليلاء ، قضاها نار مسهداً حينما تم تـــأميم مصنعــه الميكانيكي . وبكى يوماً في حجرته في داره فـــي بلدتـــه . وتـــم الاستيلاء على حصته في شركة المقاولات تلك التي كان يدعي أنه صاحبها . وفوجئ بأن ترخيص المحجر سحب منه ، وكان فـــي حوزته لأعوام طويلة . ووضع رأسه بين راحتيه . وأخذ يفكـــر . في ذلك العهد المسمى بالعهد الاشتراكي . يجب فيـــه أن ينكمـــش صاحب المال ، ولا يفكر في أن يقيم مشاريع ، أو أن تكـــون لـــه حصة في مشروع ، وذلك مهدد في كل وقـــت بالاســـتيلاء علـــى المشروع أو الحصة في المشروع .

عرف نار في هذه اللحظة فائدة البخل الذي كان يعيشه ، فقد كانت الأموال تتراكم في حسابه الجاري في المصرف . وأخيراً توقف تراكمها لأن النبع نضب .

فوجئ نار بعد أيام أن عوضاً ، ذلك العامل الذي كان يعمل عنده وأصيب فطرده أصبح مديراً للمصنع الميكانيكي . ولما تقصى الأمر من وديع الذي استمر يعمل بالمصنع . عرف أن عوضاً قد حصل منذ سنوات على بكالوريوس الفنون التطبيقية قسم النسيج وأنه اشتغل في مصنع المحلة الكبرى مهندساً للنسيج . وأنه كان من رجال الاتحاد القومي ، فرشحه المسئولون لأن يكون مديراً على المصنع الميكانيكي المؤمم . بل فوجئ نار أن الحكومة لم تصدر قراراً بتأميم المصنع اليدوي الذي يديره نور .. ذلك الذي يكرهه .

(٥٥)

عرفت آمال بتأميم المصنع الميكانيكي من الصحف . اتصلت بنور لتعرف أخبار المصنع اليدوي ، فأخبروها أنه غير موجود ، وأن المصنع لا يزال ملكاً لها ، ويديره نور .

كانت آمال قد استقرت في القاهرة . حتى ترحم نفسها من رؤية مطلقها الذي تزوجها في غفلة من الزمن وانجب منها لكنـــــه لـــم يعاملها المعاملة الواجبة لزوجة . وهربت أيضاً من حبيب فر منها لأنه يصغرها سناً ويقل عنها مالاً . وانتبهت آمـــــال لأولادهـــا . وفرحت لما تخرجت حنيفة من الثـــانوي العـــام ، وكـــانت مـــن المتفوقات ، فالتحقت بكلية الطب بالإسكندرية ، فاضطرت آمال أن تستأجر شقة في مدينة الإسكندرية ، وتنتقل إليها لتكون بالقرب من ابنتها . أما إبراهيم فقد صعد إلى الثانوية العامة ، وصعدت معه – في نفس الوقت – أخته صفاء إلى السنة الثانية . ولم تجـــد آمـــال مشقة في نقل أوراقهما إلى مدرسة بالشاطبي . وعزمت علـــى أن تشتري سيارة لتنقل الثلاثة من دارها في جليم على البحـــر إلـــى الشاطبي كل يوم .

قضوا كعادتهم الصيف في البلدة بجانب الأرض الزراعية التـــي يقوم عليها ناظر عينته آمال ، وعهد إليه نور أيضاً برعاية المائـــة فدان التي وهبتها إياه آمال قبل الإصلاح الزراعي الثـــاني . وزار الأولاد أباهم في المصنع ، لأنه لم يكن موجوداً بالعشة ، وقيل لهم إنه لا يبيت فيها .

(٥٦)

لم يعرف الأولاد أن أباهم نور تزوج وسكن في مدينة المحلـــة الكبرى . وأنه يذهب إلى البلدة بعربة يجرها حصانان ، ويعود إلى داره في المحلة الكبرى ، بل لم يقل لهما إنه رزق بولدين أحدهمـا سماه جهاد وآخر سماه عابد . ولكنهم سمعوا أن عمهم نار – الذي يرفض أن يعترف بأبيهم رغم حكم المحكمة – قد تزوج من فتـــاة ريفية تصغره بثلاثين سنة . ، وأنه لم يلبث معها إلا أيامـــاً ، ثـــم تركت له الدار ، بيد أنه لم يطلقها .

انتهت الإجازة دون أن يشاهدوا أبـــاهم إلا مـــرات معـــدودة . وحزنوا لهذا الموقف الذي يقفه أبوهم منهم ومن أمهم ، تلك التـــي بذلت له كل غال ورخيص . أعطته إدارة المصنع اليدوي ومنحتــه مائة فدان بعد أن طلقها ، ولكنه يقابلها بوجـــه متجـــهم ، حينمـــا تذهب إلى المصنع لمتابعة أعماله باعتباره مدير المصنـــع . هـــي تحبه ولم تكرهه رغم ما يبديه من عدم ارتياح لوجودها ، ولكنـــه يعاملها باحترام باعتبارها رئيسة له ولكن دون ود .

لم يبقوا في البلدة طويلاً . إذ أن آمال قررت أن تترك البلدة بما فيها من أحزان وذكريات غير مستحبة . وتقضي شهر أغســـطس في الإسكندرية في شقتها الجديدة الواقعة على البحر فـــي منطقـــة جليم ومعها أولادها جنتها وسعادتها وراحتها .

(٥٧)

جاءت كوثر تطرق باب نار من جديد بعد مراجعة طويلة مع النفس . بعد فراق دام شهر . راجعت نفسها : من مات فقد مات فقد واراه التراب . ولا يجوز أن أحرم نفسي من العيشة الرغدة . ولم أقتله ولم يكن المتسبب في قتل أبي ؟ .. إن خطأ أبي هو السبب في موته . حقاً لم يعاملها وأمها معاملة كريمة حسنة في وقتها لكنه الآن زوجها . قد يكون جاحداً أنكر أنهما يستحقان تعويضاً ولكن الأثرياء هكذا لا يدفعون تعويضات للعمال الذين يقضون نحبهم عندهم .

فتح نار الباب ، ليشاهد كوثر أمامه . قالت : جئت لأبرئ نفسي أولاً من زعمك أنني سممتك . وأطلب منك أن تسرحني بمعروف .

قال نار شامتاً : هل وجدت من يحل محلي ؟ ..

قالت كوثر : ومن يتزوج امرأة مطلقة أو يعدها بالزواج وهي على ذمة رجل ؟ ..

قال نار : أنت لا زلت بكراً لم يمسسك رجل .

قالت كوثر : ولكنك أشعت أنني حاولت تسميك لأقتلك ، فمن يتزوج شارعة في القتل ، ولم أقتلك ؟ ..

قال : لأنك تظنين أنني قتلت أباك .

قالت : أنت فقط لم تصرف لنا تعويضاً مناسباً . خاصة أن أبي مات في مصنعك وبسبب ما فيه من آلات .

قال : لهذا أردت قتلي .

قالت : أنت اخترعت ذلك وصدقت اختراعك .

تأمل جمالها بإمعان . بدأت تحلو في عينيه . غمرتـــه أشـــعة عينيها الخضراوين خضرة غامقة . وجســـدها الطويـــل البـــض الريان . قال نار : أدخلي سأعيد لك الامتحان من جديد .

(٥٨)

بدأت قدم نور تدب في شوارع الإســـكندرية بعـــد أن التحـــق بالجامعة . وذهب إلى كليته الجديدة في الشاطبي . يكلم نفسه دائماً في ماضيه . وعادة ما يتساءل : هل أخطأت في حق آمال ؟ .. إن المرأة أغدقت عليّ بكرمها وانتشلتني من الفقر رغم ذلك لا أعاملها المعاملة المفروضة ، لكني لا أحبها ويبدو أنها تريد أن أحبـــــها . كيف يحدث ذلك هل أملك أن أوجه قلبي نحو حبها ؟ .. يبـــدو أن المدخل الأول من ناحيتها لقلبي لم يكن سليماً . هو الســـبب فـــي إعراضي بداية عنها . دخلت عشتي رغماً عني ، وأثارتني ، وأنــا مجهد نائم ، واتصلت بي وظننت أنني أحلم بها . واضطـورت أن

أتزوجها حتى لا يلاقي ابني منها مصيري . ولكني كنت مرغمـــاً على الاقتران بها . وهي التي أرادت الطلاق ، ذلك لأنك لم تبــال بها ولا بحبها . ورغم صدودك عنها وهبتك مائة فدان لم تكن تحلم بها . أنا لا آخذ منها ريعاً وهي تصرف الريـــع علـــى أولادك . تتركها لها مصاريف لهم . أنت ناكر للجميل يا نور . لقد نقلتـــك من معدم ليس لك إلا أجرك إلى ثري تلعب بالمـــال . ألا يتطلـب ذلك منك أن تحبها أو على الأقل تبدي لها الشعور بالانجذاب بـدلاً من الإحساس بالنفور . يبدو أنك أصبت بعقدة اضطرمت في قلبـك ناحيتها لا شفاء منها .

والآن ، كل منا نسى الآخر , اصبح لي ولدان , وهي .. لعلـــها لم تتزوج لأنها تخاف أن تضم الأولاد - أولادكما معاً - إليك . لو فكرت أن تبني بيتاً مع رجل وتنجب منه أولاداً .. حقاً لا أسـتطيع أن أجعل أولادي يعيشون مع رجل غريب . هذه مســألة مبـدأ .. كيف أتنصل من أولادي . هي تعرف ذلك . ولذلك تمتنـــع عـــن الزواج . ومقابل ذلك أترك لها الأولاد .

(٥٩)

فوجئت حنيفة بأبيها يسير عكس اتجاهها في شارع من شـوارع الإسكندرية القريبة من كليتها . اندهشت وقالت : أبي .. ماذا تفعل هنا ؟ .. احتضنها وقبلته في خديه ، فقال : أنا طالب في الجامعة . سألت : في أي كلية . قال : في كلية الزراعة . عادت تحتضنـــــه وهي تقول : مبارك يا أبي .. مبارك ..

عادت حنيفة إلى شقة أمها . لتعلن خبر دخول أبيها الجامعـــة . استمعت إليها آمال مشدوهة . وقال إبراهيم : يبدو أنه كان يذاكــر من ورائنا. لم يقل لنا أبداً أنه يدرس . قـــالت صفــاء : اقضــوا حوائجكم بالكتمان . أليس ذلك ما أوصانا به الرسول عليه السلام . سألت آمال : لكن كلية الزراعة تحتاج إلى تفرغ .. ماذا ســـيفعل بالمصنع ؟ .. قالت حنيفة : لم أسأله .

سافرت آمال إليه في البلدة لتسأله عن الوضع الحالي فـــي إدارة المصنع بعد التحاقه بالجامعة. وفوجئت به في مكتبـــه . قـــالت : مبروك . سمعت أنك أصبحت طالباً في كلية الزراعــــة . قـــال : أقالت لك حنيفة . ما أسرعها هذه العفريتة !!! .. سألت : ومـــــاذا أنت فاعل بالمصنع ؟ .. قال : سيستمر الحال على ما هو عليـــه . لكن سأعين مساعداً لي فقط . ليباشر العمل مـــن الصبـــاح حتـــى

الظهر . وحينما أعود في العصر أباشر العمل بنفسي . سألت : أليس ذلك مرهقاً بالنسبة لك ؟ .. قال : لو جئت أنت لتمارسي الإدارة فأهلاً وسهلاً . قالت : وهل أنا أفهم في الإدارة ؟ .. وهل أترك الأولاد دون رعاية ؟ ..

(٦٠)

تغيرت كوثر كثيراً – هكذا رأى نار – من امرأة متمنعة إلى امرأة مطيعة . ولو أنه أستشم من الموقف أن كوثر تعارض أمها ، لأن المرأة لم تدخل بيت القاتل – كما كانت تسميه – بعد عودة كوثر إليه .

فوجئ نار بأن كوثر قد حملت . وطفق يأمل أن يكون المولود ولداً حتى يحجب أخاه عن الميراث . أما لو كانت بنتاً فلها نصف التركة ، والنصف الآخر لنور الذي يكرهه منذ مولده . وتمنى أن يأتي أبناؤه من هيدي ، وأن يعلنوا إسلامهم أمام أهل البلدة ، فتؤول إليهم الثروة ولا يؤول جزءاً منها إلى نور . لكن مضت الآن أكثر من خمس وعشرين سنة ولم يأت واحد منهم ولم تفكر هيدي أن تلتقي به ثانية . بل لم تدلهم على أبيهم . ولعلها غيرت أسماءهم وغيرت دينهم وغيرت عاداتهم . أصبحت مادية أكثر مما هي

روحية . لن يختلفوا عنك يا ابن المادة . فأنت الآخر لا تفهم في الحب والمشاعر والعواطف ولن تفهم ..

أنجبت كوثر بنتاً . اغتم نار بعد ولادتها ، لكن صار لديه أمل أن تنجب مرة أخرى . وتنجب ولداً يحجب ذلك الأخ الكريه . وتساءل نار بينه وبين نفسه : إذا كان نور لم يقدم على المطالبة بميراثه بعد ثبوت نسبه ، فهل سيشارك سلسبيل – كما سمتها أمها – في الميراث . أنت تعيش في وهم أن نوراً سوف يطالب بميراث منك . وهو لا يشعر بك . ثم أين هي النقود التي سيرثها . إنك تخفيها ولربما لن تسر بها إلا لأبنتك قبل أن تموت . لقد أُمم المصنع الميكانيكي . والمحجر ألغيت رخصته أو لم تصدر باسمك . ولم تنل تعويضاً مجزياً عن حصتك في شركة المقاولات . فماذا سيرث نور ؟ هذه الدار التي تسكنها ، مم تخاف ؟ ..

(٦١)

لم يفكر نور أن يستطلع أخبار أخيه بعد أن تم تأميم المصنع الميكانيكي ، وسحب رخصة المحجر ، وتعويضه تعويضاً غير عادل عن حصته في شركة المقاولات . ولم يخطر بباله أن ناراً

سوف يأتي عليه يوم يطالبه فيه بصدقة . وكيف يطالب الرأسمالي المتغطرس العبد الفقير الذي اغتنى ؟ .. ولكن نوراً سرب إلى وديع ما حدث له من انتصارات لأنه يعرف أنه سينقلها إلى أخيه نار . عرف وديع أن نوراً انتقل إلى السنة الثانية بكلية الزراعة . وأنه تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى بنت مدرس وأنجب منها ولدين . وأنه صار له عزوة كبيرة تلتف حوله . تتمثل في ابنته حنيفة التي دخلت كلية الطب . وتتفوق بفضل ما ورثته من ذكاء من والديها . وابنه إبراهيم ألتحق بكلية الهندسة . وصفاء تنوي أن تكون محامية . إذ لم تكن طبيعتها علمية مثل أخويها . وأن جهاداً وعابداً ينضمان إلى العزوة وسيستمران في مشوار التعليم دون توقف . وأنه بصدد تطوير المصنع اليدوي بعد أن أعلن المسئولون أن الاستمرار في التأميمات قد توقف . وبذلك ينافس مشروعات القطاع العام .

استقبل نار الأخبار بلا مبالاة ، فأراد وديع أن يستثير حفيظة نار فقال ساخراً : إن عوض بك المدير الحالي للمصنع ينوي – هو الآخر – أن يطور المصنع من ميكانيكي إلى آلي . وأنه قام بالتأمين ضد إصابات العمل والشيخوخة والبطالة لعمال المصنع .

وقد قال ذلك الكلام من قبل لنور فقال له ضاحكاً : لا تقل لي ذلك القول قله لنار كريم . ذلك الذي كان يتهرب من التأمينات

الاجتماعية ولا يطبق الشروط الصحية ولا الأمـــن الصنـــاعي . وتزوج بامرأة حرمها من تعويض عن وفاة أبيها .

ونهض نار وهو يقول لوديع : أغرب عن وجهي . وبدا وجهــه الأحمر كالجزرة .

(٦٢)

أم كوثر لم تفكر أن تزور ابنتها في عقـــر دار القـــاتل .إنمـــا سمحت لها أن تزورها في عقر دار المقتول . .. أبيها .

ذهبت كوثر كثيراً إلى أمها تحمل في يدها سلســـبيل . بيضـــاء مثلها . ولكنها ورثت عيني أبيها العسليتين الحمراوين المتقدتيـــــن ناراً . قالت أمها تضحك : ستكون شيطاناً مثل أبيها . قالت كوثـــر : يا للحسرة .. لقد قُلمت أظافره تماماً يا أمي . صار فقيراً وليـــس مثلما كان من قبل غنياً . يُشار إليه بالبنان . ولكن علـــى العمـــوم عيشتي الآن أحسن مما كنا نعيش في الفقر المدقـــع . وأخرجـــت كوثر نقوداً من جيبها أعطتها لأمها . امتنعت الأم في البداية غـــير أنها قبلتها لما قالت لها : ذلك تعويض عن وفاة أبي يغنيـــك عـــن الفقر وقبول الصدقات . إنه من مال المجرم ولكنه حلال لنا .

تساءلت الأم : كيف تعيشين معه وأنت تكرهينـــه ؟ .. أنـــا لا أفهمك . تساءلت الابنة : وهل الإنسان يكره العز ؟ .. إنه مــــهما

افتقر فإنه كان كانزا للمال . لا أعرف مكانه ولكنه يستخرجه مــن حين لآخر . يبدو أنه أودعه في أحد المصارف في الإســكندرية . ويذهب من حين لآخر إليه ليغترف من كنزه ثــم يعــود . حقــاً يعطيني المال قطرة ثم قطرة ، لكنها قطرة كبيرة . أستطيع منـــها أن أغنيك عن السؤال . لا فائدة من موتـــه . ولا فــائدة دون أن أعرف أين يضع النقود ؟ ..

(٦٣)

أنجبت كوثر البنت الثانية ، واطمأن نار قليلاً لأن أخـــاه لــو ورث فيه ، فسوف يرث أقل من الثلث ، لأن البنتين لهما الثلثـــان وللزوجة الثمن . ناقش نفسه وراح يقول : ولم لا أكتب المال كلــه للبنتين ، إنني لن أظـــهر علــى وجــه الأرض إلا إذا الأحــوال تحسنت ، وأصبح المسئولون بعيدين عن التأميمات ، والآن النقــود مدفونة في المصرف تدر مالاً ولو أنه قليل ، لكنه خـــير مــن لا شيء ، فما يحدث لو وزعتها لن أجد مالاً .. لا لن أوزعها على البنتين .. ولن ينال نور شيئاً . قد يتحرج أن يشارك البنتين فـــي هذه الدار التي أعيش فيها . ومتى كان يطمع في ثروتك ؟ .. أنـت تعيش في وهم كبير . وماذا يحدث لو عشت ثم اســتولت البنتــان

على المال وتركاك تقاسي آلام الجوع ؟ .. كان الأولى بك أن تقتله منذ اليوم الأول الذي رزقت فيه بأنثى . حرضت واحداً على قتله مثلما فعلت من قبل مع أبيك حينما عرفت أن له ولداً ، والولد سوف يشاركك الميراث . الآن عليك أن تتقوقع ، وأن تصرف على بيتك بمقدار ، ولا تهتم بمسألة الميراث لأنه قد يموت قبلك . وأبعد عن الشر وغنى له . وقد عرفت أن الشر لا فائدة منه حاولت لكن الأقدار سخرت منك وجعلته وارثاً رغما عنك . وكم من رجل حاول أن يكون إمبراطورا وهذا شر كبير ، فكان وبالاً عليه التطلع إلى أعلى . إنه قد يتلوى من أثر نكسة لن يفيق منها . فهل تريد أنت أن تعيش في نكسة ، ولو سولت لك نفسك أن تقتله فربما يتم القبض عليك ، وبدلاً من أن تعيش قرير العين في دارك ، تعيش في السجن . إذا لم يمت أو يتم إعدامك إذا مات .. عليك أن تختار واقعك الزاهي ولو قليلاً بدلاً من مستقبل مظلم .

(٦٤)

كان يمر بمحل حلويات في الإسكندرية ، وصادفها تجلس تحتسي كوباً من الشاي ، نقر لها على الزجاج ، نادته أن يأتي . دخل عوض إليها وصافحها بامتنان . قالت آمال : لم أعد أراك .

قال : كنت متردداً أن أزورك لأني كلما سألت عنك بالبلدة قالوا لي إنك غير موجودة . وأنك غادرت إلى القاهرة . ثم قالوا لي إنــــك الآن مقيمة في الإسكندرية ولا أعرف لك عنوان في الإسـكندرية . وهاهي الصدفة تقودني إليك . بالصدفة نزلت إلــــى الإســكندرية لشراء قطع صيانة للآلات . لقد تركت مصنع نار للغزل والنســيج والتريكو . وأصبحت الآن مديرا مقيماً في مصنع كفر الــــدوار . قالت مبتسمة سعيدة لتقدمه : مبروك . أريد أن أراك رئيس مجلس إدارة . ثم سألته : ألم تتزوج بعد ؟ .. قال : إنني أعيـــش علـــى الذكرى يا سيدة آمال . وأنا وفي لهذه الذكرى . سألت مســتغربة : الوفاء لمن ؟ .. قال وقد شاهدت قليلاً من الشعيرات البيضاء فـــي فوديه : الوفاء لحب مستحيل . زاد استغرابها فسألت : كيف هـــو مستحيل ؟ .. قال وهو يحاول أن يكون غامضاً لكنه لا يســتطيع : لأن تلك التي أحبها في مكان عال عني وقد أصعد إليها لكن بعـــد فوات الأوان لذلك أعيش على ذكراهــا . ســألت آمــال : وهــل أعرفها ؟ .. قال متجرئاً : تعرفينها حق المعرفة . لكن كيف أقــول لك ؟ .. سألت : وما اسمها حتى أقول لك أعرفها أو لا اعرفــها . قال مرتبكاً : اسمها آمال . أشارت إلى نفسها وهي تقول : أنــــا . قال مرتبكاً : ومن غيرك ؟ ..

(٦٥)

أخيراً اتفقت آمال مع عوض على أن يتزوجا . سوف يبنيان عشاً هادئاً في الإسكندرية يلتقيان فيه كل يوم خميس بعد الظهر ويوم الجمعة بكامله . وبالتدريج سوف تخطر الأولاد بأنها تزوجت من المهندس عوض . ولا أهمية أن يعرف نور ذلك ، فهو لن يتمكن أن يرعى ثلاثة أولاد جامعيين . بجانب ولديه من الزوجة الجديدة التي عرفت أنه اقترن بها منذ زمن بعد طول مداراة . فإذا كان هو حر قيراط فهي حرة أربعة وعشرين قيراطاً .

وبعد عقد قرانهما ، أستأجر عوض شقة صغيرة في الإبراهمية ، لتكون عش الزوجية . ووضعت لها آمال اللمسات الأخيرة . وزفت نفسها إلى عوض والشوق في القلب كالجمر . وشربت من عسله كثيراً بعد طول عطش . كان أمامها أن تشوب بنهم خلال الفترة الماضية لكن كانت ستفقد عفتها . وما أقسى الموقف لو فقدتها وعرف أبناؤها .. ارتوت آمال كثيراً ، فقد أحبت عوضاً حباً مكتوماً ، وأحبها عوض حباً غير ظاهر . . ثم حطم عوض الحواجز فقفزت إليه ، ليتلقفها بين يديه الساخنتين . شعرت فعلاً أنها إنسان له كيان . ولم يشعر عوض بالفوارق الوهمية التي تصورها . كان كل ما يتمناه أن يُرزق بولد أو بنت منها .. لكن هل تتمكن آمال في هذه السن أن تنجب ؟ ..

(٦٦)

لما تأكدت آمال أنها حملت . أعلنت أبناءها أنـــها تزوجـت . وعلى وشك أن تكون أماً استقبلت حنيفة النبأ بتردد ، ولـم يتفـوه إبراهيم بكلمة ، أما صفاء فقد سألت : وما يضيرك لو كنت بقيـت مطلقة ؟ .. قالت الأم : لقد بقيت مطلقة أكثر من خمس عشرة سنة . والآن لم أعد أستطيع . وعندما تكبرين ستعرفين السبب قطعاً .

وأخبر إبراهيم أباه حينما التقى به في الإجازة الصيفية . كان لا يلتقي بهم إلا في إجازات نصف السنة أو في إجازة آخـر العـام الدراسي .. وسأل نور : هل تريدون أن تأتوا للعيش معـي ؟ .. قال إبراهيم : إن أمي تعيش مع زوجها يومي الخميس والجمعـة . وباقي الأسبوع معنا . قال نور يحدث نفسه : تطورت أخيراً فبـدلاً من أن تعيش بعيدة عن زوجها كما كـانت تعيـش مـع زوجـها السابق . أصبحت تقضي مع زوجها الحالي يومين في الأسـبوع . وقال إبراهيم مؤكداً : إن بيتنا في جليم ونذهب إلى الشاطبي حيث الجامعة فالبيت جد قريب ولا مشقة في الذهاب إلى الجامعة . أمـا لو جئنا لنعيش معك هنا فسوف نتعب كثيراً . قال نـور كأنمـا يتملص من رعاية أولاده القدامى : لك حق .

ولم تكن حنيفة قد جاءت لأنها مشغولة بالدراسـة فـي كليـة الطب . ولا صفاء فقد التزمت بالبقاء فـي الإسـكندرية حتـى لا

يطالبها أبوها بأن تنضم إليه . وجدت أن البعد لا يسمح بالمناقشة في فكرة انتقالها للعيش مع أبيها في المحلة الكبرى . ووالدها نفسه لم ولن يفكر أن يزورهم يوما في بيتهم في جليم ليطالب برؤيتهم .

(٦٧)

أصيبت نرجس زوجة نور بمرض خطير في الكبد . سماه لها الطبيب المعالج بمرض الكبد الوبائي سي . وعرف نور أن عمرها قد دنا من نهايته . شعر بالحزن القاتل عليها . هكذا فرحه لا يدوم . ولما أنهى دراسته في كلية الزراعة ، سلمت الروح لبارئها ، فكانت فرحة حصوله على البكالوريوس ملوثة بمرارة الفراق . . أصبح لا يطيق أن يعيش في بيته في المحلة الكبرى ، وقفل شقته في المحلة الكبرى ، وقرر أن ينزوي هو وولديه من نرجس في دار اشتراها في غرب البلدة بالقرب من مصنع أخيه المؤمم . ودله أولاد الحلال على امرأة تقوم بخدمته هي أم كوثر أم زوجة أخيه نار . تطبخ للولدين وله وتهتم بشئونهم مقابل مبلغ من المال . ولما عرف نار ذلك هاج وماج وعنف كوثر . وقال لها : كيف تخدم أمك ذلك الرجل ؟ .. اطلبي منها أن تأتي لتعيش معنا .. قالت كوثر : كيف تأتي لتعيش معنا وهي لا تطيقك ؟ .. قال نار مغتاظاً : يبدو أنك أيضاً لا تطيقيني .. قالت كوثر : نعم ..

ولكن من أجل البنتين أعيش معك . قال نـــار محتـــداً : إذا كنــت تريدين أن تغادري البيت لأنك لا تطيقين العيش معي إلا مضطـوة فغادريه لن أمنعك . وخذي معك بنتيك إذا كنت ستتخذينهما حجــة للبقاء في كنفي .

انتهز نار الفرصة ليشعلها حريقاً . يبدو أن مصـــاريف إعالــة البنتين ضاق بها وأمهما ثقلت عليه . ولو أن رصيده في المصرف مرتفع ويرتفع لا ينخفض غير أنه ميال للشح لذلك فـــإن ثورتـــه كانت دائمة ، وهياج أعصابه لا يستقر .

كيف تطورت الأمور بهذه الدرجة . فقد نار أعصابه ولم يعرف كيف يلملمها قالت له زاهقة من عشرته : طلقني أولاً وأنا أغـــادر والبنتان معي . قال لها والغضب يستبد به : أنت طالق .

(٦٨)

لم يكن قرار نار بطلاق كوثر سهلاً . لقد جاء نتيجة تراكمـــات طويلة مع الزمن . بدأت بندمه أن أدخلها من جديد إلى بيته ، فقـــد اتضح له أن طاعتها ليست رضوخاً إنما مسايرة للجو حتى يمكنـــها أن تقتنص منه ما تريد . كانت هناك إرهاصات كثيرة أدت إلـــى هذا الطلاق . في البداية كانت ترعى شئونه ، وتناست إساءتها إلى عائلها . وحاولت أن تكتم نار الضغينة التي تحملها له . غـــير أن

معاملته السيئة لها جعلتها تتمنى أن تغادر البيت . لم ينس هو أنها سمته يوماً ، وكانت تسعى إلى قتله فطفق يعاملها كمجرمة فلم تصف نفسه لها . زهدت فيه أولاً ولم تعد تخاطبه إلا لماماً . وكلما زاد في معاملته السيئة أصرت على المغادرة . وكلما توقح وعايرها بأنها فلاحة وجاهلة . كانت الكراهية تتربع على قلبها ، وتفرش بساطها الأسود على صدرها . ولم تعد تطيقه . وانتهزت فرصة شجاره معها بشأن اشتغال أمها عند نور كريم ، فأثارته بكلامها.. إنه يكره أخاه الذي يستنكره ، فكيف يحب زوجه التي تكرهه ؟ .. وحملت أغراضها بعد طلاقها ، وذهبت لتعيش مع أمها . لو عملت فلاحة في الحقل فسوف تكون في أحسن حال من وجودها سيدة دار غير مكرمة في دار نار كريم ، تعيش عيشة مهينة . سيدة لا وزن لها ولا اعتبار .

ولم يأسف نار على مغادرة كوثر الدار . فهي المرأة التي لم تحترمه من بين النساء مثلها مثل زوجته الأولى الإنجليزية . زوجته الثانية كانت ترعاه وتحترمه وتقدره ربما لأنها أصلاً عاملة لديه . وزوجته الثالثة كانت تبجله ربما لأنها كانت خادمة لديه أما هذه الرابعة فالكبرياء مرسومة على وجهها . والكراهية تنزل مع دموعها على قهرها معه . والحقد والغضب والضغينة ترقد في أعماقها ، تكشف عن نفسها أوقات الشجار . لقد أسف

على أنه أعادها إلى داره بعد أن غادرتها ولـــم تكـــن رزقـــت بالطفلتين . وزاد أسفه لأنه أمضى معها هذه السنين وهو يعاشــــر أفعى لا يأمن شرها . لكنها الرغبـــة فـــي المتعـــة كـــانت هـــي المسيطرة .

(٦٩)

وجد نور نفسه يرعى حفيدتي أم كوثر رغما عنه ، ولم يكـــن يعرف أنهما ابنتا أخيه نار ، ذلك لأنه تعمد في السنوات الأخـــيرة ألا يتقصى أحواله مثلما لم يتقصها في السنوات الأولى . وكـــانت الأخبار تصله عن طريق وديع ظنا منه أنه يغيظ نور بانتصـــارات نار في مجال الصناعة . وكانت قد جاءت إليه أم كوثـــر قائلـــة : أريد أن تجد عملا لكوثر ، فقد طردها زوجها وطلقها بل وضع في عنقها بنتين منها ومنه .

قال : ماذا يمكنها أن تعمل ؟ ..

قالت أم كوثر : منذ أن مات أبوها في مصنع نار الميكـــانيكي للغزل والنسيج .. لم تتعلم شيئا . كنت أعولها إلى أن رآهـــا نـــار نفسه وطلب يدها . رفضت في البداية ثم وافقت . واتهمها بأنـــها سمته فتركت داره إلى داري . وعادت إليه مرة أخرى لما اشـتدت علينا الحاجة ففي كنف رجل يمكن أن تهنأ وأنجبت منه بنتين .

ذهل نور وهي تروي القصة ، وتستطرد قائلة : استمررت في رفض اللقاء به أو الذهاب إلي بيته لرؤية ابنتي إلى أن جاءت إليّ منذ زمن قريب مطرودة مطلقة ومعها طفلاها وطلبت مني أن أبحث لها عن عمل لتعول ابنتيها .

قال : ألا تعرفين أن المدعو نار هو أخي ؟ ..

شهقت المرأة وقالت : كيف ذلك ؟ .

كانت تعرف ولكنها ادعت الدهشة . ونور يقول : أبوه أبي .. ولو أن أمنا ليست واحدة . ثم أردف نور قائلاً : اعتبري بنتك وابنتيها وأنت في ضيافتي . وسوف أتعهد بكن . ولا تعرضي ابنتك لتجربة العمل المهين ، فمادامت لا تملك شهادة فلن تعمل عملاً كريماً . هناك خلف الدار جزء منعزل أقمن فيه . وسوف تذهب الطفلتان إلى المدرسة مثل ولدي من زوجتي المتوفاة .

(٧٠)

وصل النبأ إلى نار عن طريق وديع ، حيث أن المصنع الميكانيكي السابق لنار كان يقع في الجهة الغربية من البلدة بالقرب من دار نور . وكان يلتقي به كثيراً في الذهاب والإياب فيتكلمان كصديقين قديمين . وحكى نور لوديع ما كان من أخيه وقصة زوجته وابنتيه معه وقراره أن يراعاهما هي وابنتيها وأمها ، ونقل

وديع الخبر إلى نار لأنه يريد أن يشعر نار بالغيرة ، فيرد ابنتيـــه وزوجته إليه . غير أن ناراً كان غاضباً في قرارة نفسه ، بـــارداً أمام ما أبداه وديع . قال : ليتغدى بهما ويتعشى . لم يعد يـــهمني أمره وأمرهن . قال وديع متسائلاً : وإذا طـــالبتك بنفقـــة ونفقـــة حضانة الطفلتين ، فماذا ستفعل ؟ .. قال نار مبتهجاً : إنها لا تريد أن ترى وجهي . ولا يكون لي بها صلة فلن تطالب .

روى وديع ما تحدث به نار لنور فقال نور : لا أدري لم هـــذا الرجل خسيس هكذا . إن أبانا كما عرفت عنه كان كريماً خلوقـــاً عظيماً .. يعطف على الفقراء حتى ولو لم يكونـــوا مـــن أهلـــه . ويرعى الناس رعاية كاملة . قال : هذا هو طبعه ! .. لكن نـــوراً عاد يسأل نفسه : لم لم يكن كريماً معي . أو كريماً مـــع أمـــي . تركنا دون سند . وجعلنا نشق طريقنا في الحياة دون معونة مـــن أحد .. وفي نفس الوقت كان كريماً مع هـــذا الخســـيس . أعطـــاه القدرة والسلطة والمال . لا أدري ماذا أقول ؟ .. إنه سر يستعصي على الفهم .

(٧١)

عاشت كوثر في الركن الخلفي من دار نور . تتلقـــى طعامـــها وكسوتها وطعام ابنتيها وكسوتهما كما لو كانتا ابنتين مـــن بنـــات

نور . ولعبت سلسبيل وأنهار كثيراً مع جهاد وعـــابد . فـــي أول النهار يذهبون إلى المدرسة الابتدائية بالبلدة ويعودون معاً . أصبحا أخوة . ولو أنهم عرفوا بمرور الأيام انهما أبناء وبنات عم . ولـــم تكن كوثر ترى نور إلا لماماً . تراه حزيناً رجلاً فقـــد زوجـــه . مكتئباً لحياته الجديدة الخالية من الزوجة . ولا تتكلم معه إلا قليـــلاً تعبر في أحاديثها عن امتنانها وشكرها له لأنه انتشـــلها وانتشـــل ابنتيها من الفقر . غير أن نوراً بطبعه الصموت كان يـــرد ردوداً مقتضبة .

فكر نور أن يعود لآمال ، غير أن نبأ زفافها إلى عوض – ذلك العامل الذي أصبح مهندساً – جعله يتراجع عن فكرته . ووجـد أن بقاءه أرملاً ومطلقاً من قبل الترمل أمر لا يجوز ، لذلـــك طفـق يتقصى أخبار بنات البلدة . أتريد أن تتزوج عذراء يا نـــور ؟ .. وأين هي البكر التي ترضى برجل له خمس أولاد . ثلاثـــة منـــهم على وشك التخرج من الجامعة . واثنان فـــي نهايـــة المـــدارس الابتدائية ؟ .. ومن هي التي ترضى أن أبقى في دار تسكن فيـــها مطلقة أخ نبذك ونبذ ابنتيه أيضاً ولا يسأل عنهما ؟ .. إن الوضـــع إذا استقام فلا بأس أن تتزوج من طليقة أخيك ، فـــترعى ولديـــك وترعى أنت ابنتيها . وترعى أمها أيضاً . هل توافق كوثر علـــى ذلك ؟ ..

(٧٢)

عرض نور على أم كوثر أن يقترن بكوثر .. تـــاهت المــرأة وقالت : وهل نتوصل لذلك ؟ .. ثم قالت : أترك الأمر لأسألها .

انتقلت كوثر من الباب الخلفي للدار إلى الباب الأمامي ، لتصبح سيدة الدار . وفرح الولدان بأمهما الجديدة الرقيقة العذبة الحنونـة . وفرحت البنتان بأبيهما الجديد – عمهما – العطوف الكريم هــادئ الصوت . اختلاف كبير بين أبيهما وعمهما زوج أمهما الجديد .

وصل النبأ إلى نار فاستشاط غضباً . ثم هدأ بعد أن قال لنفســه سوف يتكفل بهما وينفق عليهما ولن يفكر أن يمس أموالهما التـــي ستؤول إليهما مني بعد وفاتي . ثم نظر إلى المرآة ليقول : يبدو يا نار أنك سوف تعيش من بعده وسوف .. لا .. إن لديه أولاد خمسة لا يزالون على قيد الحياة ، وسوف يرثون ثروته التي آلت إليه من زوجته السابقة فكيف إذن أرثه ؟ ..

بينما كان نار يفكر في تشغيل ثروته من جديد بعد أن هـــدأت موجة التأميمات واصبح الجيش والرئيس منشغلين باسترداد الجزء الضائع من أرض مصر . كان نور يتمتع بالزوجة السابقة لأخيه .

(٧٣)

فتح نار الباب بعد طرق شديد ، رأى أمامه عملاقــا ذا شــعر أصفر وعينين خضراوين تفوق قامة العملاق قامته الطويلة . سأل العملاق بلغة إنجليزية : هل السيد نار موجود ؟

قال نار مستغربا : أنا نار .. ماذا تريد ؟ ..

قال العملاق : أنا موس .

قال نار : ماذا تريد ؟ ..

سأل العملاق : ألا تعرفني ؟ ..

قال : هذه أول مرة أراك فيها .. كيف أعرفك ؟

قال العملاق : أنا مصطفى نار كريم .

أشار إليه ، وعيناه تغرورقان بالدموع : ابني .

ابتسم العملاق وهو يقول : نعم .. ابنك .

تقدم منه واحتضنه ، فاحتضنه العملاق رغما عنه . ليس مـــن عادة الإنجليز الاستقبال بالأحضان .

دخلا الدار ، نظر مصطفى إلى الأثاث فامتعض .

سأل نار بفضول : أين بقية أخوتك ؟ ...

قال : أخي سافر إلى استراليا مهاجرا .. وأختي تزوجت وتقيـم في ويلز .

سأل نار رغما عنه : وأمك ؟ ..

قال : تزوجت لورداً .. وجاءت معي . وهي الآن في الأقصـــر .. تتفرج على آثار الفراعنة مع زوجها .

كان نار يلتقط الكلمات بصعوبة ، فبينه وبين ممارســـة اللغـــة الإنجليزية دهر طويل عريض . أفتقد معاني بعض الألفاظ لكنـــــه تمكن من الفهم الإجمالي .

سأله : هل جئت لتراني ؟ ..

قال : ولم أنا هنا ؟ ..

(٧٤)

سأل الأب بعد أن فتر حماس اللقاء بينه وبين ابنـــه : مـــاذا تعمل ؟ .. قال : أعمل رجل أعمال . سأل الأب : ومن أين لـــك المال ؟ ..

قال : جدي كان ثرياً . فلما مات آلت أمواله إلى أمي هيـــدي . وتزوجت هي الأخرى بلورد ثري . .. فتراكمت الأموال في يدهـا . وسلمتني إياها لأعمل .

سأل الأب : وهل جئت لرؤيتي أم لتنشـــئ مشـــروعات فـــي مصر .

قال الابن : سمعت بعد حرب أكتوبر أن الحكومة المصرية فتحت الباب للاستثمار الأجنبي . جئت أراك وندخل معاً في مشروعات سريعة العائد .

سأل الأب : مثل ماذا ؟ ..

قال : مشروعات غذائية مثلاً . تستفيد من الإعفاءات الضريبية المقررة . ثم ننهي المشروع لنفتح آخر .

قال الأب : عفارم عليك يا ولد . أنت ابن أبيك . هذا ما كنت أفكر فيه .

قال الابن : سمعت أن لك مصنع نسيج .

قال الأب منكسراً : تم تأميمه بالكامل . لكن مبلغ التعويض احتفظت به .. بعيداً عن العيون .. عيون الطامعين .

قال الابن : والآن لا مانع لديك من أن نبدأ مشروعاً استثمارياً .. أنا أمولك .. وأنت تشاركني . والأرباح مناصفة .

قال الأب : وهل أحد يكره ؟ ..

سأل الابن : وأرضك الزراعية ؟ ..

قال الأب مذكراً : أين هي الأرض ؟ .. لقد اضطرني جدك أن أبيعها حتى أسدد له حصة في المصنع الميكانيكي .

(٧٥)

سافر نار من القرية إلى الإسكندرية يصحبه مصطفى نار ، هكذا أراد ابنه العائد . لم يكن ولداً عادياً قال إنه حاصل على ماجستير في إدارة الأعمال . فلحت هيدي في تربيته ، ولم يكن وحده ، جاء محصناً بعدة رجال للأعمال الأجانب ، يتكلم معهم الإنجليزية بطلاقة ، كأنه ليس ابن فلاح مصري أو رجل أعمال من الريف المصري . واختبأ الوهم المتجدد في أن يرثه نور من بعد أن يموت ، وظهر هاجس منه في ديانة الولد لأنه لو كان مسلماً فسوف يرثه ، ولو كان قد دخل المسيحية ، ديانة أمه فلن يرثه ، وسأله بجرأة : بأي دين تدين ؟ .. قال بسؤال : أتقصد ما ورثته أو ما أصبحت عليه أو ما أدين به الآن ؟ .. سأل : ما تدين به الآن ؟ .. أجاب الولد إجابة غامضة : هذه أمور شخصية بحتة . لا يجوز لأحد في إنجلترا أن يسألها للآخر . الدين المعاملة . عاملني بأدب أعاملك بأدب . عاملني بقلة ذوق أعاملك بقلة ذوق . سأل نار : لم أفهم ماذا تقصد ؟ .. قال الابن : لا تتعب نفسك يا أبي . أنا لا أطمع في شئ عندك وإذا أردت أن تأخذ مني فخذ ما تشاء ، فسوف أكون أنا الرابح في النهاية لأني أجزلت لك العطاء . أين أنت من ذلك الولد ذي الأخلاق الغنية ؟ .. لقد حرقت أباك وحرمته .. من أجل أن ترث عرضاً زائلاً . أضاعت أغلبه

الثورة المباركة . وسرق بعضه حموك والبعض الآخر خزنته في خزائن المصارف ولم تستفد به . وأنت الآن تستخرجه من أجل ولدك لكنك حذر في المعاملة المالية . لا تريد أن تضع كل الزاد في يد ابنك خشية أن يفلت الزاد منك ولا تجد إلا الطوى .

حاول أن يهدئ من نفسه فأوحى لها أن الولد ابن أبيه . وهو سيرث من بعده المال .. ومعه أخوته . ولن ينازعهم أحد في دينهم .. مادام لن يجهر بما يخالف الشرع .

(٧٦)

وجد نار نفسه أمام مكتب محام في أحد شوارع الإسكندرية التي لا يعرفها . قال مصطفى إنه تعرف عليه في لندن ، وأنه سيباشر له كل الإجراءات والقضايا المتعلقة بالمصنع الجديد . مصنع البسكويت والشكولاته . واجهه مكتب فخم ملئ بالأنوار والمرايا والزينة والنباتات المتسلقة . سيقوم المحامون المشتركون مع المحامي الكبير بشراء الأرض باسم الشركة . شركة أولاد نار للبسكويت والشوكولاته . . وسيقومون بشراء المعدات والآلات وتدريب العمال على تلك الآلات والمعدات . شعر نار أن ابنه ينتشله من القاع بعد أن خسفت به قوانين الثورة إلى القمة حيث

فتح السادات أبواب الاستثمار فـــي كـل المجـالات ومـع كـل الجنسيات . أين هو الآن ؟ .. وأين كان بـــالأمس ؟ .. بـالأمس ضاعت الأرض وضاع المصنع . وأنتظر منذ عام ١٩٦٣ حتـــى عام ١٩٧٥ متقوقعاً حتى جاء ميعاد النهضة .

قابل نار المحامي الكبير ، شاب في مقتبل العمر لـــم يتجـاوز السادسة والثلاثين أكبر كثيراً من سن ابنه البكر ذلك المولود فـــي العام ١٩٤٩، أشيب الشعر ، عيناه ذاتـــا بريـق ممـيز . دائـم الابتسام . وجيه كأنه مصنوع في بيت من بيوت الأزياء . طمأنـــه عادل بهجت المحامي أن كل شئ ســـوف يسـير وفـق قـانون الاستثمار ، وأنه يجب أن يظهر مصطفى نـــار كريـم بجنسـيته البريطانية حتى يستفيد المصنع من الإعفاء الضريبي لكـن الأرض والمعدات والآلات ستكون باسم الشركة . وأن كل شئ يسير علـى ما يرام إلا إذا حاربتهم البيروقراطية المتشـعبة والمتغلغلـة فـي الإدارة المصرية .

(٧٧)

تخرجت حنيفة أخيراً وحضرت احتفالين بتخرجها . الأول فـي الإسكندرية في شقة أمها حضره أخواها وأمها وزوج أمها الـــذي صار يعيش معهم . والاحتفال الثاني في البلدة حيث دار أبيـــها .

وهناك شاهدت لأول مرة أخويها من أبيها جهاد وعابد من زوجته المتوفاة نرجس . صغيران فعلاً لكن عاقلان . تبدو عليهما سمات الجدية مثل أبيها . وتعرفت على بنتي عمها نار وعلى زوجة أبيها الجديدة كوثر . وحضر الاحتفال أخواها من أمها إبراهيم وصفاء . وتمنى الأب أن يعيش حتى يحتفل مع أولاده في الأعوام القادمة على تخرجهم من كلياتهم . ودمعت عيناه حباً فيهم . وبينه وبين نفسه لام نفسه وعاتبها لأنه لم يكن أباً فاضلاً لأولاده من آمال . وحينما أصبح أباً فاضلاً لأبنيه من نرجس الزوجة المتوفاة خطفها الموت ، ولم تشهد ما يبذله لهما من تضحيات . بل أصبح عماً كريماً مع ابنتي أخيه الجاحد .

قال إبراهيم : إننا اليوم نحتفل يا أبي بتخرجك من كلية الزراعة ولو أن الاحتفال جاء متأخراً سنة كاملة . وقال نور : لا تتصور أن حصولي على بكالوريوس الزراعة طور كثيراً من زراعة الأرض التي وهبتها لي أمكم . حولت الزراعة من تقليدية مملة إلى ميكانيكية نشطة وسريعة . قالت صفاء : أعتقد أنك سوف تضر العمالة الزراعية بذلك ، فسوف تقوم الآلات بتصفيتها . قال نور : أين هي العمالة الزراعية ؟ .. إنها تنقرض ، ثم حان الوقت الآن لأن تنخفض أعداد العمال الزراعيين ويتجهوا إلى الصناعة . مثلنا مثل الدول المتقدمة .

(٧٨)

هجر نار داره في البلدة ، واستقر بـــه المقـــام فـــي دار فـــي الإسكندرية . كان يزوره فيها مصطفى من حين لآخر . حاول نار أن يعرف منه ما إذا كانت هيدي ستزور الإسكندرية بعد عودتـــها من الأقصر وأسوان هي وزوجها اللورد . . غير أن مصطفى كان حريصاً ألا يذكر شيئاً عنها له . لذلك كف نار عن الأســـئلة . لا أهمية أن يرى هذه الإنجليزية الباردة . وكيف تسمح له نفســـه أن يستقبلها هي وزوجها اللورد ؟ .. وهل يسمح اللـــورد أن يقابلـــها وهو يعرف أنه زوجه السابقة ؟ .. ..

حرر نار توكيلاً للمحامي عادل بهجت بالقيام بكافة إجـــراءات إنشاء مصنع البسكويت والشوكولاته . ودفع مائتين وخمسين ألـــف جنيه ، دفع مصطفى مثلها بل ضعفها لأن معه شـــركاء آخريـــن مقيمين في لندن ولكنه الوحيد الظـــاهر أمـــام هيئـــة الاســـتثمار المصرية . وشاهد نار الأرض الواسعة المنبسطة أمامه التي سيقام عليها المصنع . وتجول في أنحائها بين الرمال والزلط كأنه خبـــير في الأراضي الصحراوية . وشعر بالزهو لأنه سيعود من جديـــد رأسمالي كبير بفضل ابنه مصطفى . عزوتـــه ومصـــدر فخـــره

وإعزازه . أعاد الولد إليه الحياة . وكان يظن أنها سحبت من عروقه وتجمدت في دمه وشلت مع حيويته المتقوقعة . وطلب منه عادل بهجت مائتين وخمسين ألف جنيه أخرى للبدء في البناء مع الشريك الأجنبي : ابنك المصري المتخفي في الجنسية البريطانية .

(٧٩)

صممت حنيفة بعد انتهاء نيابتها في مستشفى كفر الدوار ، أن عليها أن تفتح عيادة في دار أمها المهجورة بالبلدة ، وتقوم بعلاج المرضي الفلاحين بأسعار منخفضة أو بالمجان إذا كان المريض معدما .

بنت لها أمها العيادة عند أطراف البلدة عند الطريق الرئيسي المتجه إلى الإسكندرية . واشترى لها والدها كل المعدات اللازمة لتكون عيادة حديثة بمعنى الكلمة . وكانت حنيفة تبيت في دار أمها حول المائة فدان التي بقت لها بعد تنفيذ قوانين الإصلاح الزراعي . وبجانبها الفدادين المائة التي وهبتها أمها لأبيها قبل الإصلاح الزراعي الثاني . ورغم ذلك لم يفكر الأب أن يعود إليها . وكانت آمال تعرف أن هذه الهبة لم تكن بقصد أن يعود إليها إنما لتعود الأرض إلى أولادها بعد عمر مديد . وهاهو أبوها

يعمل في الأرض ويرشد الفلاحين بها بعد حصوله على بكالوريوس الزراعة ويدير المصنع الذي حوله إلى نصف ميكانيكي حتى لا يتشرد العمال .

لم تفكر حنيفة أن تعمل في أحد مستشفيات الإسكندرية ، كان حب الخير يجري في عروقها مثلما يجري في عروق والديها ، لذلك وهبت نفسها لمعالجة أهل البلدة والقرى المجاورة . وتخصصت في الأمراض الباطنة لأنها وجدت أن أكثر الأمراض المنتشرة في القرى هي تلك الأمراض . ولم تفكر حنيفة في الزواج . فقد استفادت من تجربة أمها فالجري وراء رجل يحط من كرامة المرأة ، وما عليها إلا أن تنتظر أن يجري وراءها رجل .

(٨٠)

نار كان متلهفا على أن يرى المشروع النور ، لذلك لما طالبه المحامي عادل بهجت بنصف مليون جنيه ليبدأ في استيراد الماكينات ، أسرع نار لإحضار المبلغ من المصرف . وطلب من المصرفي أن يخبره برصيده المتبقي ، فقال له إنه نصف مليون

أخرى . قال نار يحدث نفسه : هذه النصف الأخرى لا يجـــوز أن أمسسها فلا اعرف ما إذا كان المصنع سوف يؤمم أم لن يؤمم .

أعطى نار المبلغ للمحامي وقال له : هنا تنتهي مهمتي الماليـــة وأنا انتظر الإنتاج ثم التوزيع فالأرباح . قـــال المحـــامي : وهـــو كذلك .

أخلد نار في شقته في الإسكندرية ، وانتظر أن يوده مصطفـــى نار كريم ، غير أن الأيام انصرمت ، ولم يحضر مصطفى إلـــى الشقة كعادته ، وأجل زيارته إلـــى المحـــامي ليســـتطلع أحـــوال مصطفى ، إذ لربما يكونان مشغولين بتأسيس المصنـــــع . وبعـــد أسبوعين قرر أن يزور المحامي ليستطلع مدى تطور الأحـــوال . غير أنه وجد أن اللافتة الموجودة على مكتب المحامي تحولت من عادل بهجت إلى مأمون عبد السلام . دخل المكتب فـــاعترضت طريقه السكرتيرة ، غير أنه نحاها جانبا وهو مضطـــرب ودخـــل على هذا المدعو مأمون عبد السلام . سأله على الفور والسـكرتيرة تلاحقه تحاول أن تمنعه من الدخول : أين عادل بهجت ؟ .. قـــال مأمون عبد السلام : الأستاذ عادل بهجت صفى أعماله في مصـــر وسافر . سأل نار : إلى أين ؟ .. قال : وكيف أعرف .. هل أنـــا وكيل أعماله ؟ ..

(٨١)

اكتشف نار أنه سقط في مصيدة نصـــاب . ليـس هنـــاك أرض . وليس هناك شركة . وليس هناك معدات . وأن ابنه مصطفى نـــار ابتز نقوده ، وساعده ذلك المحامي الساقط عادل بـــهجت . حتـــى الشقة التي أستأجرها مصطفى له أتضح أنها شقة مفروشة . طالبه البواب بإخلائها إذا لم يدفع إيجارها الشهري .

عاد نار إلى البلدة مهموما ، ونزل من السيارة العامة يمشي كأنـــه يتوكأ . شعر أن قلبه يرتجف ، وان دقاتـــه زادت . وأن ذراعـــه ترتعش ويتألم . وأن جانبه الأيسر ينضغط والألم يزداد فيه تشعبا . وعند باب عيادة الدكتورة حنيفة نور سقط نـــار مغشـــيا عليـــه . وتجمع السابلة حوله ، ونقلوه إلى عيادة الدكتورة حنيفة . أسـرعت الدكتور – دون أن تعرف شخصية المريض – بمراجعة ضغــــط الدم والنبض وقياس الحرارة والقدرة على التنفس . وحقنته بحقنـــة لتخفيض ضغط الدم العالي فلم يكن واعيا حتى يبلع قرصـــا مـــن الأقراص المخفضة لضغط الدم أو يتركها تحت لسانه .

غير أنه لم يفق . وإن انتظم تنفسه . وصرفــت الجمــاهير التـــي ازدحمت حول العيادة لترى نتائج الكشف على ذلك الرجـــل فـــاقد الوعي . وسألت حنيفة وهي تصرف المتجمهرين : من يكون ذلك

الرجل . أجابها واحد من أهل البلدة ممن يعرف الناس جيدا : إنــه نار كريم .. أحد أعيان البلدة .

(٨٢)

عرفت حنيفة أن المريض هو عمها . نار كريم . ذلك الذي صنــع الحواجز الكثيرة بينه وبين أبيها نور كريم ، ولــم يكــن يعــترف بأخوته ولا بنسبه . وطلبت سلسبيل وأنهارا ليأتيا ليأخذا أباهما إلى بيته . ارتعدت الفتاتان في البداية غير أنهما تشجعتا وجاءتا إليها . وحملته الدكتورة حنيفة بمساعدة الممــرض الــذي يعمــل معــها والبنتين . واستخرجا مفتاح الدار من جيب الرجل فاقد الوعــــي ، وكان يرتدي بذلة كاملة .

حمله معهم بعض الرجال القريبين من داره ، ترافقه بنتاه والطبيبة المشرفة عليه .

سألت سلسبيل : متى يفيق يا دكتورة ؟ ..

قالت حنيفة : إنه نائم الآن .. وقد يفيق عنــــد الفجــر .. أو فــي الصباح .

لم تذهب حنيفة إلى عيادتها إنما بقت لرعاية عمها . وقامت لتطبخ له خضارا وتسلق دجاجة . خرجت سلسبيل لشرائهما . لم تســتطع

الدكتورة أن تتركه في أيدي طفلتين لم تتجاوز أكبرهمـــا الثالثـــة عشرة من العمر . وكان قد مضي زمن طويل لـــم يشـــاهدا فيـــه أبوهما . فطفقا يتأملان ملامحه الفاترة الصفراء . طردهما ولكـــن جاءتا له طوعا بناء على توجيهات من بنت عمهما الكبرى .

عند الفجر أفاق نار ، والتفت حوله ، وسأل : من أنتن ؟ ..

كن جالسات بالقرب منه . قال حنيفة مبتسمة : هذه سلسبيل نـــار كريم . وهذه أنهار نار كريم . وأنا الطبيبة صاحبة العيادة الواقعـة عند أول البلدة .

سأل : وأين أنا ؟ ..

قالت حنيفة : في دارك . وجدنا المفتاح في جيبك ففتحنا الدار حتى تستريح في سريرك .

(٨٣)

كيف خانني مصطفى هكذا ؟ .. ألم تقتل أباك ، فماذا تنتظر مـــن ابنك ، هو على الأقل سرقك فقط . أما أنت فقد حرضـــت وديعـــا على حرق عشة زوجة أبيك وهو معها حتى تؤول إليـــك الـــثروة كاملة . الولد لم يختلف عن أبيه . لكن أسلوبه عصري في أيلولـــة

الثروة . النصب . الإيهام بأنه يؤسس لك مصنعا هو الشريك الأجنبي فيه ، ويقبض على المال هو وشريكه المحامي المزيف ويستوليان عليه ويفران . وأدوات النصب جاهزة . مكتب محام فخم . أرض واسعة . وتوكيل بإنشاء المصنع . والاستيلاء على الأموال على دفعات . وأنت هائم في الأحلام المزيفة . ومن أدراك أنه ابنك لربما سمع قصة هروب أم مصطفى من مصطفى نفسه فانتحل صفته . جاء هو والمحامي عادل بهجت الذي كان مقيما في لندن من قبل لينصب عليك . وربما كان عادل بهجت محاميا من قبل وسافر إلى بريطانيا طمعا في رزق وفير فلما عرف قصة ابنك وأمه معك وجد أن خير طريق للوصول إلى جيبك الإيحاء بإقامة مشروع استثماري ، فلما جاءا إلى البلاد فتح المحامي المكتب واستمر يباشر المهنة حتى تسقط في شباك المزعوم مصطفى ثم يفران بالمال . . إنك سقط يا نار في شراك نصابين محترفين .

تدخل سلسبيل حاملة شربة الخضار التي أعدتها الدكتورة وبجانبها الدجاجة الساخنة . ابن الإفرنجية نصاب . وبنت الفلاحة متفانية في خدمة أبيها . جاءت هي وأختها لما عرف أنك سقط من طولك يا نار . أسرعا لأبيهما ينجدانه .

تبعتها الطبيبة . متفانية هي الأخرى . الغريب يخدم بلا مقـــابل . والقريب يستولي على المال ويهرب .

يسأل نار : ما اسمك يا دكتورة ؟ .

تقول : اسمي حنيفة نور كريم .

يذهل نار ويندهش ويسأل بفضول : بنت أخي نور كريم .؟ ..

تقول : نعم .

يجهش بالبكاء . لم يكن يتوقع أن العائلة التي حاربها تخدمه وهـو على فراش المرض . يستمر يبكي وهو يتألم .

الرياض في ٢٤ / ١ / ٢٠٠١